

للمستظمين غير نوع من المشروبات فقط رأيت انه يمين على اشتباه الطعام وأنشأت في أنحاء كثيرة من المدينة غرفاً للمطالعة يدخلها في السنة نحو ثلثمائة ألف مطالع. وبهذه الطريقة نزل معدل تناول المسكرات في العشرين سنة الأخيرة الى ٤٠ في المائة بمدينة استوكهولم والى ٤٥ في مدينة غوتنبورغ وسنت السويد عام ١٨٩٢ قانوناً اجبارياً يقضى فيه على جميع المدارس أن تلتقى دروساً في طبخ المشروبات الروحية وتأثيراتها المضرة .

هذا ما قامت به حكومة السويد التي لا يحظر دينها تعاطي المشروبات وهي البلاد المشهورة ببردها وزمهريرها فما الذي قامت به الحكومة المصرية التي تحظر شربها كل مسكر وحرارة اقليمها لا تعذرهما في الاستهتار والاسترسال في كرع كل ما يخترعه المخترعون من أنواعها وما يصنعه الصانعون في أرضها ليبيعوا من فقيرها السكّاس بلميم فيورده موارد الهلاك في دار الجحيم . فليت أهل شمالي أفريقية يعملونهم وحكومتهم ببعض ما عملت به حكومة السويد في شمالي أوروبا فان قالوا في الاحصاء الاخير ان في نيويورك وسكانها ثلاثة ملايين ونصف ١٠٨٢٠ محلا لبيع المسكرات بالمفرق وفي باريز وسكانها مليونان ونصف ٣٠٠٠٠٠ وفي لندرة وسكانها أربعة ملايين ونصف ٥٨٦٠ محلا فانا أقول ان في هذه العاصمة الاسيفة أكثر من هذا العدد يبيع لاهلها الصبوح والخبز من فاسد الالكحول فيفسد الاجسام والمقول

الماكيب والاسراف^(١)

في الشريعة السمحة آداب اجتماعية عالية لو عمل بها المسلمون لما لحقت غبارهم أمة في مكارم الاخلاق وتهذيب النفوس . فلو عمل المسلم بشريعته فاخرج الزكاة مثلا لما رأيت اليوم فقيراً ولا جائعاً ولا عرياناً، ولو تجانف الكذب والتزوير وأكل المال بغير حق لما اشتغل القضاة طول النهار بفض الخصومات بين الناس

(١) نشرت في جريدة الشرق يوم ٦ ربيع الآخر ١٣٣٦

البشر الآن في ضائقة لم ينالهم بمضها من عهد حفظ التاريخ . أمن المروعة أن ينعم بعض افراده ويسرفوا على حين تكفي فضلات طعامهم والزوائد من رفاهيتهم ومظاهرهم لان تعول كثيرين من المحايج ، وأغرب طرق الاسراف أن يفضل المتوسط الذي هو أقرب الى الفقر من الغنى على الاغنياء والمنعمين ليقال عنه انه كريم وهو يرى في أهل محلته والمحتفين به مئات يطرون الاليالى على الطوى ولا راحم لانيهم

كثير من أوضاعنا وعاداتنا يحتاج الى أن يعالج بالأصلاح لنعود به الى هدى الاسلام ، أو الى أساليب المدنية الحديثة . فقد أصبحنا في معظم حالاتنا لا الى القديم ننسب ولا بالحديث نعرف أو نعرف ، ففدا مجتمعنا وفيه كثير من الفس والرت وضروب من سخييف العادات والمراسم .

دعنا منذ أيام أحد المنتسبين للعارف مئة وثلاثة أشخاص من أهل بلده الى حضور مأدبة لهم أقامها في داره وأطعمهم أجود الطعام وضروب الخلواء والمعجنات ولولا لطف المولى لاصيبوا بالتخمة وسوء الهضم ! وقد كان المدعوون أشتاتاً لا تجمع بين كثير منهم الا جامعة السكنى في بقعة واحدة ومن المادة أن يجتمع في المآدب الخاصة عند المتمدين أهل طبقة معينة من الناس حتى يأنس المدعوون . يتساوون في الجلوس الى الخوان بحيث يكلمهم صاحب الدعوة ويكلمونه . ولكن هذه الدعوة كانت كما هي معظم الدعوات في هذه الديار مجرد املاء بطون المدعوين ، كأنهم في مطعم اجتمعوا بالعرض ، ولا جامعة بينهم الا جامعة الاكل .

فتأمل أمشاجاً من الناس يشتركون على طعام وهو ساعة مؤانسة ومباشطة هل يجدون حديثاً يلذهم على السواء وينفض عقد اجتماعهم على لا شيء اللهم الا قشور من حديث معاد وأمر لا كتبها الا لسن فلا تنفع في دين ولا دنيا قد يضطر بعض أرباب المروآت الى عشرة المتخالفين في الاذواق والمشارب ، وتدعوه الحال الى مباشرتهم والانس معهم أحياناً ، فاذا أراد أن يجمعهم كلهم في صعيد واحد في يوم واحد ، يكون قد أساء اليهم في الحقيقة أكثر مما أحسن ، خصوصاً من علت عاداتهم عن مستوى العادات العامة التي لا ترجع الى أصل من الاصول المتعارفة ، فقد قال حجة الاسلام في باب آداب المآدب من احياء العلوم:

وينبغي للداعي أن لا يدعو من يعلم انه يشق عليه الاجابة واذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الاسباب . والغربي اليوم اذا دعا في الغالب انساناً يقول له او يكتب ان مآدبته يكون عليها معه فلان وفلان، فالمدعو اذا لم يرقه الاجتماع باحدهما يكتب قبل ميعاد الدعوة بالاعتذار عن الحضور .

وليمة فيها زهاء مئة مدعو لو أدبت في أرقى عواصم الارض لما حوت الا اخلاط الزمر ، فعلى من اضطر الى دعوة هذا العدد الدثر أو السرية الكاملة ان يقسمها الى خمس مآدب ويقسم الاطعمة وما يتبعها والنفقات وما يتشعب منها على تلك النسبة وهناك تحصل الفائدة من الاجتماع ويعرف كل مدعو انه حضر واستأنس حقيقة ، واذا كان صاحب الدعوة يريد مظهراً فظهر الخمسة أكبر من مظهر الواحد على كل حال

أقبح ما يقبح من أحوالنا أن نسرف في موطن نحتاج فيه كل الحاجة الى الاقتصاد وصرف المال في سبيله المشروعة ، نطعم أرباب المظاهر ونسرف في الماء كل والمشرب والملبس ، ثم نشاهد عباد الله يتضورون جوعاً ولا تأخذنا بهم رحمة، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « شر الطعام طعام الوليمة يدعى اليها الاغنياء دون الفقراء » .

التهدن الانثوى (١)

أرى فئة كالغانيات تدللا	تميل مع الاهواء كل تميل
تخال الفتى منهم على ظلمة النهى	لالوان ثوبيه سماء أصيل
ماول كما شاء الهوى واقتداؤه	بمن حوله من خلة وخلييل
وما وجد الاعمال يوما وانما	ليست تحسنوا فيه دلال ماول
وظن الفتى أن التمدن (انثوى)	فتابع فيه كل ذات حليل
تماجن في أشكالها من مصبغ	الى كل مجلو وكل صقيل
الى اللفظ حتى مات كادشفاهه	تبين بلفظ منه غير نحيل

الى اللحظ حتى ما تكاد جفونه تطارح لحظاً منه غير عليل
دلال جميل بالجمال مهناً فآه عليه من دلال جميل
أرئيك هم شباننا لو عرفتم وهم كلهم من في مصر غير قليل
مظاهر نبل نافقوا في اصطناعها ألا قبحت من صنعة لنبييل

هذا ما وصف به الرافعي شباننا وكلامه يصدق على بعض من يتألقون في
الزينية فيصنفون شعورهم ويخففون خدودهم ويفتلون سبلاتهم وينغمون
بأصواتهم وربما مزجوا كلامهم ببعض الالفاظ الافرنجية . ويختارون من الالبسة
آخر زى من صدره ملونة مخرمة ، صنعت من القطيفة المزركشة ، وسترة
مشقوقة وسراويل ضيقة ، وخاتم ماس في اليد وعصا عقافتها من الذهب ،
وحذاء ملوناً ملمعاً ، وطربوشاً مقرناً مكويماً ، وبالجملة كل ما فيه ظاهر مموه .
ومن تراهم اذا جمعك بهم الاتباق وقد عبقت منهم رائحة الطيوب والعطور ، وقد
حرصوا على الازياء ، حرصهم على أعز الاشياء

التطيب والتزين والتجمل باللباس الجيد الجديد حسن في ذاته مباح عقلاً وشرعاً ،
أحل لنا كما أحلت الطيبات ، ولكن اذا جاوز صاحبه فيه الحد كان أجدر بربات
الحجال منه بالرجال لانه مشغلة عن ارتياد الفضائل والسعى في سبيل الكمال
الحقيقي وناهيك بأن من شباننا من يصرفون ساعتين كل يوم في التبرج «التوالث»
كانهن بعض النساء يتزين لبعولتهن

وهذا مما يسجل علينا ضعف النظر في كل ما اقتبسناه من عادات الغربيين
فقد اقتدينا بسرف المسرفين منهم ولم نهتد بهدى أهل القصد والاقتصاد ،
وجاريناهم في التبرج والتزين بعد أن كانا غير معهودين في الشرق الا للمخنشين ،
وشايبعناهم على تعاطي المسكر والميسر فأضعفنا آدابنا وديننا طمعاً في إحراز هذا
التمدن الذي لا يقوم بزعمنا الا بالانسلاخ من وطنيتنا وعاداتنا المستحسنة واقتباس
كل عادة تأتينا من طريق الافرنج .

أخذنا عاداتهم بل عادات السفلة والشعوب النازلة منهم بيتنا ، وليتنا لما أخذنا
ما أخذنا ميزنا بين الصحيح والزيوف والضعيف والمضعوف ، والشريف
والمشروف

عميت علينا السبل فلم نقتد بامثل من جعلناهم قدوتنا في حياتنا بل مددنا اليد الى ما وجدناه عرضاً فلم نسقط الا على الملوث القذر من المادات والاخلاق أكثرنا من الامراف في الملبس مثلاً حتى نسينا كل نسبة بين الدخل والخرج فامبراطورة المانيا في أوروبا وهى من جلال المسكنة ماهى لا تستنكف أن تدير ألبسة كبار أولادها لصغارهم عند ما تضيق عنهم حتى لا تطرح شيئاً جزافاً وهو مما يحسن الانتفاع به . والرجل منا قد يصرف على لباسه ربع دخله فيستلف ويمطل ويهون عليه ما يأتى ولو باع الطين ورهن العقار ليلبس كل اسبوع بل كل يوم بذلة جديدة كأنه من نساء الاغنياء في نيويورك لا يهدأ له بال الا أن يظهر غناه ليصدق عليه قولهم في الامثال « أبت الدراهم الا أن تخرج أعناقها »

ماذا يقول الكاتب عن مغالاة بعض شباننا في الزينة واغراقهم في السرف والترف وما تجلببوا به من عادات لا تلائم الشرق وفقره ودينه ، والغرب يشكو من بقائها بين ظهرائى أبنائه الى اليوم ، ويتمنى لو نزع آخر جرثومة منها عنده لتكون له مدنية تامة كاملة ، وحضارة رجولية لا نسائية هم يفكرون ويكتبون وينصحون ، ونحن تركنا جبل آدابنا على غوار بنا . ولا نبالى بما يدخل علينا من غرائبها وسخائفها ، ولكن القوم فى أوروبا على ما بلغوه من أسباب التقدم مما نغبطهم على أكثره لم يفتؤا يحاربون نقصهم ويسعون الى كمالهم ونحن نحارب كمالنا ونسمى الى نقصنا .

أكتب هذا وأمامى مبحث جليل لأحد علماء التربية فى فرنسا نشره بمناسبة قيام ائنتى عشرة ألف معاملة مؤخراً فى نيويورك يطالبن حكومتها بأن تنصفهن فى الرواتب كما تنصف المعلمين لانهن يقمن بمثل الاعمال التى يقوم بها الرجال فى التربية والتعليم ، فاضطرت الحكومة الى اجابتهن الى مطالبهن ، وزادت ميزانيتهن ثلاثة ملايين دولار عن مدينة نيويورك وحدها

قال : ان تسليم مقاليد التربية للنساء دون الرجال مما يؤخر لان حب التجمل ينغرس فى الصبيان كما لاحظت ذلك اللجنة المؤلفة من مئات من أساتذة الانكايز الذين انتدبهم المستر موسى أحد أغنيائهم منذ بضع سنين للبحث عن طريقة التربية فى الولايات المتحدة ، فكتبوا فى ذلك تقريراً قالوا فيه ان من تأثير تربية

المعلمات قلة أخلاق الرجولية في الامة الاميركانية . ولم تكن ملاحظة هذه اللجنة الاولى من نوعها بل اني غير الاميركيين كثيراً ما كانوا يدهشون مما يبدو لا نظارهم من هذا القبيل في أميركا ، ولكن القول يغلو على قدر قائله ومكانة لجنة ولسلي بمن تألفت منهم

قال : وكيف لا تحكم هذه اللجنة على الاميركان ورجالهم يعنون من وراء الغاية في المحافظة على الست والثلاثين الف قاعدة في مصطلحات التمدن (الاتيكييت) غيبالغون في التأنق بلباسهم مبالغة مفرطة ، ويدققون كل التدقيق في القيام بأقل ما تقتضيه سنة الازياء ، ويرققون ألفاظهم ترفيقاً يقربها أبداً من التكلف ، ولا ينسب ذلك الا لتسليم مقاليد التربية للمرأة . ولو استطاع المرء أن يكون تاماً في هذا المعنى لما كان في ذلك بأس بل قد يحدث كثيراً أن المبالغة في التزني والمنافسة في الحصول على صفات الظرف الذي لم تجعله الطبيعة من خصائصه تعبت بمروءته . قال : ومن سوء أثر هذه التربية في الاميركان ان الرجل يرى نفسه أحط من المرأة مهما تصنع لها ويرى من كرمها أنها تعطف عليه وهكذا حتى أصبح المجتمع الاميركي انثويا فيه من ضروب التكلف والغرابة أشكال وألوان اه

هذا ما قاله كبير من كبار علماء التربية في الحكم على التربية الاميركية فاذا جاء فوصف تربيتنا أي حكم يصدر علينا يا ترى؟ تلك التربية الملققة التي ورثناها من مربية رومية أو فتاة طليانية أو جارية زنجية أو كرجية أو بربري ذى زبيبة أو ماجن ذى أطوار غريبة

ان قالت لجنة ولسلي بأن التمدن الاميركي أصبح انثويا فاذا تقول لو رحلت الينا وحكمت علينا بدون مشايعة لغرض سياسي ولا بدافع هوى نفسى . لا جرم انها تقول ما قاله شاعرنا الرافعي :

وظن الفتي ان التمدن انثوى فتابع فيه كل ذات حليل

تكريم النزاهة^(١)

توفى منذ أيام رجلان عظيمان من عمال الحكومة أحدهما كامل بك والى سيواس
الاسبق والثانى كامل بك الصالح رئيس محكمة استئناف سورية سابقاً . واحد
خدم فى أرقى مناصب الادارة فى الولايات وطاف ينفذ وحجازها وطرابلس غربها
وأناضولها . والآخر بلغ أرقى مناصب القضاء فى الولايات وتقاب فى اعطافها شرفاً
وغرباً . فخدم كل منهما الحكومة زهاء خمس وأربعين سنة ورائدها أمانته وصدقه .
وتفانيه فى مسلك النزاهة والعفة

ولد هذان الموظفان الكاملان فى مدينة صيدا (الشام) ومات فى يوم واحد فى هذه
المدينة (دمشق) وشباباً وشباباً فى حسن الخدمة ، وتشابه فى أكثر الوجوه ، وماتا
ولم يخلفا وراءهما من حطام الدنيا الا ما لا يكاد يرضى به من كان فى عمله بعدهما
بعشر درجات من الكتاب والحساب ولكن الكاملين خلفا ثروة لا ينضب على
الايام معينها . ونعى بها كمنز استقامتهما وعزة نفسيهما فعفا عن كل ما يقال له
الرشاوى والهدايا والصلوات من أموال الامة ، وخدمها خدمة صادقة رائدها
الاخلاص وسداها ولحمها العلم والعمل الحقيقى .

كثير من الناس من يتولون من المناصب أرقاها ، ويجمعون من المال أوقافها ،
وينالون من مراقى العز منتهاها ، ولكنهم يذهبون بقبح الاحدوثة وسوء القالة ،
وتلعنهم القلوب اذا لم تلعنهم الالسن ، وهم عند ظنهم قد عاشوا بنعمة ، والحال
أنهم عاشوا أشقياء مردولين ، وقضوا كذلك فنالوا الخزى فى هذه الدار وفى
الدار الآخري .

لا يقاس فى نظر التاريخ احترام الرجال بقدر ما مملكت ايمانهم ، وضمت
خزائهم ، بل بقدر ما انتجت عقولهم وشرفت أعمالهم ، وأعظم سلوى يرتضيها
المستقيم فى عمله ويؤثرها على كل فاقة ، ويستعين فى سبيلها بكل صعب هو انه
يحيا غير معذب الوجدان ، مستقل الفكر ، ويموت قريح العين ، لبعده عن الخيانة
والعبث بدماء الناس والعبث فى أموالهم وحقوقهم .

يتهمنا بعض أرباب الاغراض من الجاهلين بأنه يقل فينا معاشر العثمانيين المستقيم
العنيف من رجال الجيش والادارة والقضاء ، وانه اذا وجد العامل الكامل بيننا
يميش مضطهداً ، ويؤخر عن قصد في سلاسل الترقى ، والحال ان في هذا الامر
نظراً لانه لا يعقل أن تخلو الامة من كلمة ، ومتى غلب فاسدوها على صالحيتها
فهناك الخراب المحتم . اما ان النزبه يضطهد ولا يرقى فان في ماضى هذه الدولة
وحاضرها مئات من الامثلة على خلاف ذلك ولو كانت الحال على ما يدعون
ما ارتقى فقيدا العريبان في الولايات هذا الارتقاء ، فثبت ان للاستقامة أناساً
يقدرونها قدرها ، وان النزبه العنيف من العمال يحترمه ويخافه حتى الذى هو
أرقى منه في سلسلة المراتب وتقدم الميلاذ

ما اجتمعت بعامل مرئش مهما كانت درجته الا ووجدته خائفاً ذليلاً صغيراً
في نفسه يصانع وينافق ، وما اجتمعت بعامل من أهل الصنف الا قرأت
عزة النفس في وجهه والشمم والرفعة الحقيقية في أطواره والجد غالباً عليه في
أقواله وأفعاله .

ومن الغريب ان كل من جمعوا المال وبالغوا في اضاءة حقوق الناس ليغتنوا
بزعمهم ، أصابهم الفقر قبل موتهم وبقيت أنسا لهم معذبة ولم تنل حظاً من الترية
وهى الى الدثور والعفاء أقرب منها الى الحياة والعلاء ، أما الذين ثبتوا على عفة
أيديهم فلم يتناولوا المال الا من طريقه الذى شرع لهم وهو رواتبهم ومخصصاتهم
ونفقات تنقلهم ، فقد رأيناهم عاشوا سعداء منعمين ، موسعاً عليهم وتركوا
لاولادهم تربية سليمة هى أمن من كل ثمين

مظاهر الحياة كثيرة ، والعمال أقرب الى الغرور من غيرهم لان بأيديهم قوى
لا يمنعهم عن اساءة استعمالها وازع غير الوازع النفسى ، فن غلبت شقوته سعادته ،
كان من المغرورين بمظهرهم ، وعبت بالامانة التى اؤتمن عليها وأى أمانة أعظم
من مصالح الناس وحقوقهم ودمائهم ؟ ومن كانت سعادته غالبية شقوته ارتضى
باحقاق الحق وازهاق الباطل وعامل الرعية وهى وديعة الله بين يديه معاملة الاب
المشفق الرحيم ، وهذا هو الذى يقدره الناس ويرحمونه ويدعون له حياً وميتاً
في ظاهريهم وباطنيهم والله لا يضيع عمل عامل

الحاج مصطفى حولاً^(١)

ربما يستغرب القارئ ايراد هذا الاسم في هذا المكان ولكن متى ظهر السبب بطل العجب . هو يستغربه لان صاحبه ليس ذا مظهر ديني ولا دنيوي ولم يحرز لقب باشا ولا بك ولا افندي ولا شيخ ولا سيد لان الظاهر من حاله انه رجل من عامة المسلمين .

نعم هو مسلم هدته الفطرة الى آداب الاسلام بدون أن يدرس في مدرسة دينية أو دنيوية ولا تشبع بمدنية الغرب ولا الشرق وما كان أبوه رب عقار ومزارع ، ولا خلف له أو أحد أقاربه أموالا اكتسبت من غير حلها من مثل وقف أو رشوة أو ظلم أو سرقة بل هو عصامي عاش من تجارته المشروعة وأملا كه القليلة

يعرف الرجال أيام المحن ولو لم تنشب الحرب ما كان رجل كهذا عاش في ساحل من سواحل البحر الابيض يقل الواردون اليه يصبح موضوع الحديث ومحل تجلة الاقلام ويتناقل خبر احسانه الخاص والعام . وكتم خمل في الحرب رجال ونبه رجال

عادة مستحكمة في كثير من الناس أن يولوا الجميل ليقال عنهم ويروى ، ويمدوا أيديهم بالعطاء لان السخاء خلق محمود يجب صاحبه الى القلوب وتطيب نفوس أرباب الغرائز السلمية لسماع أخباره ، بيد ان الرجل الذي ننوه به هنا انبسطت يده بالعطاء مدفوعاً الى ذلك بعامل الدين والانسانية لا طلباً لشهرة ولا ايثاراً لمظهر ولا توقعاً لدنيا مريضة يحاول نيلها

من كان يظن ان تاجراً متوسطاً من تجار ميناء طرابلس الشام يأخذ على نفسه بسائق حميته الوطنية وغيرته الدينية أن يطعم منذ أعلن النفير العام معتى انسان كل يوم يطعمهم الماء كل الطيبة ويفرح قلوبهم بالحلواء أحياناً وقد انفق في هذا السبيل ارباحه زمن الحرب وجانباً من رأس ماله . وعاهد الله في باطنه أن ينفق

على هاتين السريتين من جنده الفقراء حتى آخر درهم من عقاره ، أفلا يجب على كل انسان أن ينادي بارك الله بهذا الانسان .

ثلاث سنين ونصف مضت على الحرب العامة ونفس الحاج مصطفى الكاملة لم يفضب معين قوتها في تمهد البائسين . وثلاث سنين ونصف على الحرب العامة ونفوس أرباب الاحتكار من التجار والمتمولين من أرباب المزارع والعقارات في مدن الشام لم تشبع من جمع المال ولو بايذاء البلاد وساكنيها ، أفلا نقدر الاول ونحتقر الآخرين

عرفت في دمشق وبيروت وحيفا خصوصاً أناساً ليسوا في الطبقة العليا بغناهم يطعمون الفقراء ويلبسونهم ويؤونهم ، ومنهم أناس من أرباب المظاهر الدينية وآخرون من أشرف التجار والموسرين ، ولكنني لم يبلغني ان رجلاً من مثل طبقة هذا فادي بماله ووقته في سبيل الله وحاول أن يسد من الفقير جوعته ، ويظفي في قلب البائس لوعته ، على صورة منظمة لم يهتد اليها العالم النحرير ، ولا الغني الشهير ، ولا الزعيم والامير .

صاحبنا لا يتوقع الا وجه الخالق وبر الخلق بما يسدي . جعل نفسه خادماً للفقراء بالعمل ، واستلذ العطاء وتخفيف البلاء ، استلذ تلك الطبقة التي غلظت أكبادها ، فلا ترى المصلحة الا بالجمع والمنع ، حتى يخلفوا الاموال لاعتقابهم يفسقون بها ويفجرون فلا هم بها مستمتعون ، ولا الناس بها منتفعون .

يوصى الاغنياء والمتوسطون على الغالب بوصايا مختلفة بعد موتهم كأن ينشئ الموصى جامعاً أو مدرسة أو تكية أو مجرى ماء أو يعبد طريقاً ، أو يتعهد طبقة مخصوصة من الناس بشيء من الدراهم يرضخ لهم بها ، أو يطعم أناساً يعينهم أو قراء فقراء يذكرهم ، أو يتامى وإيامي يبرهم ، وذلك بعد أن يكون نقض يده من الحياة ، وفارق الدنيا اضطراراً لا اختياراً ، فلا يسخو بماله على الاغاب الا يوم يتجرد منه بدافع طبيعي ، ولكن الحاج مصطفى حولاً يسخو بماله في حياته يخلص به من الموت أهل البؤس والشقاء ، غير مشفق على نفسه ولا على عياله لا جرم ان مدبر الاكوان ، وخالق الانسان ، والعدل في الخليقة من آياته ،

سيهيد له بتيسيره القرش الذي انفقه في البقاء على حياة كثيرين الفأ ويصطفيه
وبرحه . ويبدد ثمن تلك الاموال التي اكتسبها اربابها من طرق دنيئة في الاكثر
ولا رحموا بجزء ضئيل منها أهل حبيهم وعشيرتهم في زمن يموت فيه العاجزون
جوعا وعريا

(١) المستشرقون ومؤثرهم

الاستشراق أو علم المشرقيات هو كما عرفه لاروس علم من العلوم الحديثة
ودائرتة الحالية واسعة فاذا نظرنا الى الالفاظ من حيث مفهومها نرى ان التعبير
عن اللغات الشرقية لا يتناول غير اللهجات التي يتكلم بها في شرقي أوروبا أي في
آسيا وفي جزء من افريقية المتصل بآسيا ولكن لفظ الاستشراق يطلق اليوم
بتجاوز على لغات أميركا وأفريقية الجنوبية والبلاد الشمالية وآدابها وأخلاق
سكانها . فترى اللغة اليونانية الحديثة واللغة الرومانية والروسية تدرس في مدرسة
اللغات الشرقية الحية في باريس كما تدرس لغات الشرق أي العربية والفارسية والتركية
والصينية واليابانية والهندستانية والعبرانية والسريانية والحبشية والقبطية
والاخرية . بل ان اللغة المجرية نفسها بالنظر لعلاقتها باللغة التركية والمغولية تدرس
هناك كما تدرس اللغات الشرقية .

لم يدخل علم المشرقيات في أسلوب عامي الا في القرن التاسع عشر . وقد كان
اليونان واللاتينيون يدعون اللغات الشرقية التي كانوا يعرفونها (كالفارسية
والفينيقية وغيرها) لغة البربر ولذا يهملون دراستها . وشاعت في القرون الوسطى
لغتان فقط من لغات الشرق بين العلماء وهما اللغة العبرية التي كانت تعتبر لغة
الانسانية الاصلية واللغة العربية التي كانت مهمة لكثرة البشر الذين يتكلمون
بها ولشهرة فلاسفة الاسلام أمثال ابن رشد وابن سينا ولذلك الشيء في باريس
منذ أواسط القرن الثالث عشر لاهيلااد درس عام لتدريس اللغة العربية

ثم ان المذهب البرتستانتي توخى البحث عن النص الاصلى للتوراة فحمل
أشياءه على درس العبرية والسكندانية والسريانية. وأنشأ بعد ذلك البابا غريغوريوس
الثالث عشر وأوربانوس الثامن دروساً لتعليم اللهجات الشرقية بالعمل ليستفيد
منها المبشرون بالنصرانية وفي سنة ١٦٢٧ أنشئت مدرسة انتشار الايمان . وطفق
المبشرون منذ ذلك العهد يأتون بالآثار النفيسة لخدمة الدروس الشرقية . ونشر
اليسوعيون في القرن الثامن عشر في العالم الغربي مدينة الصين واليابان ولغتيهما .
وأنشأ الوزير كولبر في فرنسا مدرسة الشبان لتعليم اللغات فأصدأ بها تخرج تراجم
تستخدمهم حكومتهم في الشرق وأنشأوا يدرسون اللغة الفارسية والتركية
وانتشرت القصص والحكايات الشرقية أمثال قصة ألف ليلة وليلة والرسائل
الفارسية وغيرها ثم ان فتح فرنسا وانكلترا للهند قد دعا الى اكتشاف اللغة
السنسكريتية

وبعد نحو عشر سنين تأسست طريقة نحو المقابلة فدخل درس اللغات في
طور جديد حسن الاساليب وفي الجزء الاخير من القرن الثامن عشر اكتشف
انكتيل دوپرون اللغة الزندية والبهلوية وكان من حملة بونا برت على مصر «١٧٩٨ -
١٧٩٩» أن بدأ بها دور السياحات العلمية الكبرى التي اشتهر بها القرن التاسع
عشر وجىء الى أوروبا من مدينة رشيد في مصر بالحجر المشهور وكان حل خطه
مبدأ درس الآثار المصرية وانحلت لغات دثرت منذ ألوف من السنين كاللغة
الاشورية . وشرعت الحكومات تنفق على البعثات العلمية وتؤسس دروساً لتعلم
تلك الابحاث واللغات فترى فرنسا تعلم اللغات الشرقية الحية في مدرسة خاصة
لذلك كما ان للغات الشرقية القديمة دروساً في كولييج دى فرانس « مدرسة
فرنسا » وكذلك في مدرسة الدروس العليا في الكليات . ومن أعظم العلماء الذين
ساعدوا على الاستشراق في القرن التاسع عشر شامبوليون « في الآثار المصرية »
واوبرت ولفورمان وراولنسون وهنكس « في الآثار الاشورية » وبورنوف
وجايمس دار مستر ومولر ولاسن « في الآثار الهندية » وسانيلاس جولين
« في الآثار الصينية »

وكانت رغبة الاوربيين أولاً في تعلم اللغات الشرقية عن باعث ديني فقد

قضى مجمع فينا سنة ١٣١١ م « المقتبس م ٧ ص ٦٩٥ » وكان برئاسة الكونتس الخامس أن تؤسس في باريز واكسفورد وبولون وصلمنكة دروس عربية وعبرانية وكلدانية لتخريج وعاظ وأهل جدل أشداء لتنصير المسلمين واليهود وأنشأ الفرنسيون والدومينيكانيون من الرهبانات الكبرى في أديارهم دروساً في هذه اللغات فاصبحت ايطاليا مهد حركة نجحت في المشرقيات وأخذوا بنوع خاص يدرسون العبرية للتعمق في فهم أسرار التوراة وتنصير اليهود واللغة العربية لتنصير المسلمين يأخذون العبرية عن أعلم العلماء الربانيين والعربية عن أناس من المسلمين أو من السوريين الموارنة أمثال بنى السمعانى ومن مدارس ايطاليا نشأ العلماء الاول في اللغات القبطية والحبشية والاحرية ولكن دراسة اللغة العربية بقيت الحاكمة المتحكمة في شبه جزيرة ايطاليا فكان ينظر الى تعلمها انه من الحاجات الماسة لكل تجار المدن البحرية كالبنديقية وجنوة ونابل وبيزا وظلت اللغة العربية مألوفاً في عدة أماكن من ايطاليا الجنوبية عقيب احتلال العرب صقلية فكانت في بلاط ملوك تلك الاصقاع لغة العلم العالى والشعر والادب

كانت رومية أول مدينة في العالم طبع فيها كتاب عربى عقيب اختراع الطباعة وهو قانون ابن سينا وظلت حركة المشرقيات تختلف ضعفاً وقوة في بلاد الطليان بحسب الحكومات وهمم الافراد والمقصد الاصلى دينى والعلميات بالعرض. وكان لأسرة ميديسيس فضل على الآداب العربية كما لها فضل على الشعر والموسيقى والتصوير والهندسة

وفي أواسط القرن الثامن عشر لما أخذت أوروبا تتحفز لاستعمار الشرق أخذ علماءها يبحثون في تأليف جمعيات لهذه الغاية فانشئت جمعية العلوم والفنون في جاوة (١٧٧٨) والجمعية الآسيوية في البنغال (١٧٨٤) والجمعية الآسيوية في بومباى (١٨٠٥) وانشئت منذ ذلك العهد في أوروبا وأميركا عدة جمعيات للمستشرقين وأقدمها عهداً الجمعية الآسيوية في باريز التى أسست سنة ١٨٢٢ بعرفة شيخ المستشرقين من الفرنسيين سلفسترودى ساسى وهو أعظم من خدم اللغة العربية من الاوربيين والفرنسيين خاصة وربما كان أعظم مستشرق نبغ ونفع (راجع كتابنا غرائب الغرب) فانشأت هذه الجمعية المجلة الآسيوية وهى خاصة

بلغات الشرق وتاريخه وعلومه وآثاره تصدر مرة كل شهرين فيتألف منها مجلدان كل سنة ومن حواها فكانما حوى أعظم مكتبة في هذه الابحاث الجليلة تخرج في مدرسة اللغات الحية في باريز كثير من مستشرقى الفرنسيس والالمان والاطليان والسويسريين وأنشأت معظم عواصم أوروبا مدارس على مثالها وان سبقت هولاندة فكانت أول من أسس جمعية شرقية في باتافيا كما تقدم سنة ١٧٧٨ وكانت مطبعة ليدن الشرقية أقدم مطبعة طبعت الامهات من كتب المشاركة والعرب منهم خاصة وذلك منذ زهاء ثلثمائة سنة

أنشأ المستشرقون عدة جمعيات في أوروبا وأسسوا عدة مطابع شرقية وطبعوا بها ألوفاً من كتب الشرق ولا سيما اللغة العربية فان ما طبع من أمهاتها عندهم هو القسم المهم من كتبنا العلمية والتاريخية والادبية وما زالت الكتب التي طبعتها مطابع باريز واكسفورد ولندن وليدن وغوتنغن وليبسيك ورومية ومجريط وغيرها من حواضر العلم والمدنية في أوروبا باللغات العربية هي المفخر الذي يحق لمدينة القرن التاسع عشر والعشرين في ديار الغرب أن تباهى به الاعصار والامصار

وما برحت أسماء دي ساسى ووستنفيلد وفاوغل وريساك وبوركهار وكارليل وكاترمير ودى سلان وغوليوس وشولتنس واربنويس وهيتسما وشيد ودى بومباى ونيبهر وزوزاريو وكولنبرك وجنستون وستوتن وفين وهوغتن وهامس ورازموسن وفامت وبيبر ودى روسى وايفلد وغابلنتس ورودينغر وسيدليو وكوسان دى برسفال وجوبرت وروزنغول وكلابروت وهابخت وبولس وفراهن ومهرن وهماكر وفرينل ودى لاغرانج ودى فرجه ورينو ومونك وبرنيه وكباريل وپرون وموله وكازميرسكى ووفريتاغ وكسفارتن ووابك وبرنستين وارنلد ووتستشتين وفترز وفولف وهاربوكر وبورغستال وجوينبول وروردا وفارس وكورتون وتاسوليس وجونس وغوتوالد وكولسون وكريستيانوفتش وخانيكوف وكاينيكوس وكودرا وموهل وبلن ودى تاسى وسولسى وايفلد وديمانج وشموا وبوتجانوف وبولديراف وسيانكوفسكى وسافلياف وغريغوريف وبافسكى ونفروتسكى وبرازين وسبنجر وتورنبرغ وخانيكوف ودوزى

ووريجت — ما برحت أسماء هؤلاء الرجال تذكر بالحمد ويطلب لها ثواب عملها هؤلاء بعض أئمة المستشرقين في القرن التاسع عشر من الالمانيين والنمساويين والهولانديين والفرنسويين والايطاليين والروسيين والانكليز والاسبانيين والدانمركيين والاسوجيين والبولونيين والبلجيكيين والاميركيين^(١) ولو جئنا نعدد مشاهيرهم في هذا الربع الاول من القرن العشرين لظال بنا المطال ومن مشاهير شيوخهم بروكلمان وولهاوزن وغويدي وغولدسبير وهوار وبراون ومرجليوث وفبري وهوتسا وباسه وزترستين وسكيا پارللي ونالينو وهوداس ودرانبرغ ونيكسون وموسل وسيبولد وهور وفيتز ويكر وهرتمن ودي فو وموتلسكي ولتمان ولامنس ومسنيون وهرغروني ودي كوي وآماري وكاركماريك وفولرس وشادوبوير وارنولدورسكاو دامس وجيزوبار تولدومورتمان ولشاتليه وبوفا وكاباتون وكور وهاليفي وماسبرو وشيفر ومكدوبل ودوفال ودي منار وبارت وسينار وليفي وكازانوفا وروزن وشوفين وشافان ودوسو ومونقيه وسبيرو وشيل وماهني ودلبروك وكولنيون ودي غوبرنانتيس ويزنبرجر ودافيدس وهوبت وكوهن وكايتاني ولامبروز ونافيل واولدنبرع. هؤلاء بعض من اشتهروا بأثارهم من علماء المشرقيات واتوا على الخطاظر ساعة كتابة هذه المجالة وهناك مئات منهم المشهور وآخر الخامل وما منهم ومن سبقوهم من الاعلام الا الذي نشر الآثار النافعة بالعربية أو منقولة من العربية أو عن احدى اللغات الشرقية وفيهم من نشر عشرات من المصنفات كانت بصحتها وفهارسها مادة الآداب العربية وخدم بها بلاده أولاً وهذه اللغة الشريفة ثانياً ومنهم من ينشر الكتاب لقدماء مؤلفي العرب بنصه ويعلق عليه حواشي باللاتينية لغة العلماء أو يترجمه الى اللاتينية وينشره بهذه اللغة فقط ومنهم من يعلق عليه أو يترجمه بلغته كاهولانديا والالمانية والانكليزية والافرنسية والايطالية والاسبانية والروسية والسويدية والمستشرفي كل أمة كبرى عدة جمعيات مهمة راقية واقدمها جمعية باريز وتلتها جمعيات المانيا والاستشراق أرقى ما يكون في بلاد الجرمان الآن والى علماء المشرقيات

(١) جاء الاميركيون متأخرين في الدروس الشرقية ومع هذا فان فيهم مستشرقين نشروا كتباً وآثاراً دلت على فضل ومعرفة بالعربية وآدابها وتاريخها

منهم ومن الهولانديين يعزى الفضل الاكبر في نشرهم كتب اجدادنا في العلم والتاريخ والجغرافيا والادب واللغة والدين . والجرمانيون والهولانديون اقدر الاوربيين على النطق بالعربية وبالنظر لاختصاصهم أو اخصائهم جاء منهم أئمة قل نبوغ أمثالهم في الامم الاخرى ومجلة المستشرقين الالمانية راقية جدا وتتألف منها مكتبة مهمة بحثت كالمجلة الآسيوية الافرنسية في علوم الشرق وآدابه ولغاته ولم تترك شاردة الا احصتها ولا مبحثا الا محصته ونجى بعدها مجلة المستشرقين النمساويين ومجلة المستشرقين الانكليز والاطليان وغيرهم من أمم الحضارة والولوع بالمشرقيات

وقد اعتاد المشتغلون بالمشرقيات منذ سنة ١٨٧٣ أن يعقدوا مؤتمراتهم يحضره جلة منهم ويكون مقره في احدى العواصم المشهورة وتنتدب الحكومات من يمثلها في تلك المؤتمرات فتتلى فيها الخطب المفيدة والمحاضرات التي تنم عن فضل بحث ودرس في لغات الشرق وعلومه وتاريخه واجتماعه ويتنافس أئمة هذا الشأن في هذا السبيل المحمود وكانت الحكومة العثمانية والحكومة المصرية تنتدب أناساً يمثلونها في المؤتمرات التي عقدت حتى الآن وكان بعضهم من العلماء والادباء وقد عقد المؤتمر الاول سنة ١٨٧٣ في باريز والثاني سنة ١٨٧٦ في لندن والثالث سنة ١٨٧٧ في بطرسبرج والرابع سنة ١٨٧٨ في فلورنسة والخامس سنة ١٨٨١ في برلين والسادس سنة ١٨٨٣ في ليدين والسابع سنة ١٨٨٦ في فيينا والثامن سنة ١٨٨٩ في استوكهلم والتاسع سنة ١٨٩٢ في لندرا والعاشر سنة ١٨٩٤ في جنيف والحادي عشر سنة ١٨٩٧ في باريز والثاني عشر سنة ١٨٩٩ في رومية والثالث عشر سنة ١٩٠٢ في هامبورغ والرابع عشر سنة ١٩٠٥ في الجزائر والخامس عشر سنة ١٩٠٩ في كوبنهاغ والسادس عشر سنة ١٩١٢ في آيينة ويعقد السابع عشر سنة ١٩١٥ في أكسفورد

وسيكون هذا المؤتمر برئاسة رئيس كلية اكسفورد وعهد برئاسة اللجنة المنظمة الى الاستاذ مكدونلد واللجنة العامة مؤلفة من أساتذة اللغات الشرقية أو من مدارس الدروس الشرقية في كليات ابردين وبريستول وكبريدج ودوبلين وأديمبرغ وغلاسكو ولينفربول ولندرا ومنشستر ووسانت اندري وبلاد الغال في بريطانيا العظمى ومن لجان الجمعيات العلمية الانكليزية مثل الجمعية الافريقية

والجمعية التوراتية الأثرية والجمعية البوذية وجمعية آسيا الوسطى والجمعية الصينية وجمعية آثار مصر والجمعية اليابانية وجمعية الابحاث الفلسطينية والجمعية الفارسية والجمعية الاسياوية الملكية وغيرها وستبدأ مداوالات المؤتمر يوم ١٣ ايلول ١٩١٥ وتنتهى ١٨ منه وستكون اجأائه فى علم تعريف الانسان والآثار وفى علم الآثار الاشورية وفى آثار آسيا الوسطى والشرق الاقصى ومصر وأفريقية والهند واللغات والآداب الاسلامية وفى اللغات السامية والآداب السامية وفى آسيا الغربية وإيران وتكون اللغة التى يجوز استخدامها الانكليزية أو الافرنسية أو الالمانية أو الايطالية ومن أراد أن يتكلم بلغة غير هذه وجب عليه أن يطلب الترخيص له بذلك من رئيس اللجنة التى هو أحد أعضائها أو يريد التكلم فيها هذا ما نشرناه فى المجلد الثامن من مجلة المقتبس بيد أن الحرب العالمية نشأت ولم يعقد المؤتمر فيما نظن وعقد علماء المشرقيات من الالمان ومن والا هم من النمساويين والهولنديين والسكاندينأوين مؤتمراتهم بعد الهدنة فى مدينة ليبسيك لم تحضره أعضاء الخلفاء من الانكليز والفرنسيين وغيرهم وكانت السياسة مانعة من اجتماع العلماء فقبحت السياسة .

اللقاب العلمية^(١)

ليس فى الايدى مستند يركن اليه فى تاريخ حدوث الالقاب العلمية فى الملة الاسلامية والظاهر انها حدثت فى النصف الاخير من عهد بنى العباس وشاعت وتأصلت زمن ملوك الطوائف ثم على عهد الدولتين الجركسية والعثمانية فى هذه الديار أيام أصبح العلم عبارة عن رسوم ، والعلماء هم الذين يقر بهم الملوك والحكام ولو كانوا أجهل من قاضى جبل ، بل أصبح أمر الالقاب أقرب الى الهزل منه الى الجد فصارت جملة « اعلم العلماء المحققين » تطلق على كل صعلوك نال منصبه فى القضاء أو الافتاء أو التدريس بالشفاعة أو القرابة أو الأثر لان العلم فى الثلاثة

(١) نشرت فى المجلد السابع من مجلة المقتبس

القرون الاخيرة أصبح يورث كما يورث الماعون والحرفي ، والعقار والمزرعة
نعم غدت الالقاب العامية التي لم تطلق على ابي حامد الغزالي وأبي عمرو الجاحظ
وأبي الوليد بن رشد وأبي النصر الفارابي الا بشق الانفس تطلق على من
يحتاجون أن يرجعوا الى الكتاب بل على عامة ليس لهم من أدوات العلم الا انهم
اعتموا بالبياض ولبسوا الجبة على الزى المتعارف لهم

وان الفاظ العالم والعلامة والامام والرباني (١) والحبر (٢) التي لم تطلق على
اكثر حملة الشريعة والعلم أيام نضارة الدين أصبحت تطلق على الجهلاء
لعمدنا بعد ان كانت هذه الالفاظ تجعل لافراد في الامة امتازوا ميزة ظاهرة
بعقولهم وعلومهم ، وقد تستعرض القطر بل الاقطار بل العصر والاعصار ولا تجد
واحدا استحق هذه الالقاب وصرت اذا دخلت في عهدنا الى مدينة صغيرة كطرا بلس
الشام تظن نفسك وجميع من لهم شيء من الذكر قليل أو تولوا منصباً ولو حقيراً
في خدمة الحكومة يعطون لقب « العالم الفاضل » و « العلامة الفاضل » و « الامام
المحدث » بدون تكبير

كان يقال لجبير بن زهير الحضرمي « عالم أهل الشام » وللخليل بن احمد
« علامة البصرة » ولمالك بن أنس « امام دار الهجرة » ولعبد الله بن عباس
« رباني هذه الامة » أما اليوم فان الفاظ عالم وعلامة وامام تطلق على الممخرفين
والمتنطعين الذين لم ينفعوا الامة بشيء ، فقد كان يلقب بالعلامة الاول قطب
الدين الشيرازي ، كما يطلق لقب العلامة الثاني على سعد الدين التفتازاني على نحو
ما أطلق على ارسطو لقب المعلم الاول وعلى الفارابي لقب المعلم الثاني

تشدد القوم في اطلاق القاب التفضيم حتى على العلماء صيانة لالقابهم من
الابتذال فرأينا العصام في حاشيته على الجامي لا يوافق الجامي باطلاقه على ابن
الحاجب لفظ « العلامة المشتهر في المشارق والمغرب » فقال ان في وصف ابن

(١) الرباني العالم المعلم الذي يفتدو الناس بصغار العلوم قبل كبارها وقال محمد بن علي بن الحنيفة لما
مات عبد الله بن عباس اليوم مات رباني هذه الامة وروى عن علي انه قال الناس ثلاثة عالم رباني ومتعلم
على سبيل النجاة وهمج رعا أو أتباع كل ناعق والرباني العالم والراسخ في العلم والدين أو العالم العامل
أو العالی الدرجة في العلم وقيل الرباني المتأله العارف بالله تعالى (٢) قال ابن سيده في المحققين : ابن
السكيت الحبر والحبر (بكسر الحاء وفتحها) العالم وقال صاحب العين هو العالم من علماء الديانة مسلماً
كان أو ذمياً بعد ان يكون كتابياً والجمع أحبار

الحاجب بالعلامة نظراً لأن هذا اللفظ إنما يناسب فيما بين العلماء من جمع جميع أقسام العلوم كما هو حقه من العلوم العقلية والنقلية وليس ابن الحاجب الامن العلماء في العلوم النقلية . ولذا خص من بين العلماء قطب الملة والدين الشيرازي بالعلامة حيث سبق العلماء كلهم في جميع أقسام العلوم

هكذا كان أدب سلفنا أما اليوم فقد استرسل عباد المظاهر في هذا الشأن فسموا الى تلك الالقب الشريفة التي لم يجوزوا اطلاقها على مثل ابن الحاجب الامام المحقق في فنه وبلغت الحال ببعضهم ان صاروا يكتبونها بأيديهم عن أنفسهم كأن العلامة والعالمية والامامية لا تثبت في الاذهان الا بمثل هذا العمل وعندنا ان الاخرى بمن تدور معارفه على الفقه وحده أن يسمى فقيها ان كان ممن برزوا حقيقة في أصوله وفروعه ، ومن اقتصر على الاصول وحده أن يسمى أصولياً ومن غلب عليه علم الحديث أن يقال عنه حديثياً والا فان كلمة عالم لا تقال الا لمن يعمل بما يعلم كما قال بعضهم وان شئت فقل لمن يظهر فيه أثره ويمتزج باجزاء نفسه أي امتزاج قال ابن جنى : لما كان العلم قد يكون الوصف به بعد المزاولة له وطول الملابس صار كأنه غريزة ولم يكن على أول دخوله فيه ولو كان كذلك لكان متعاماً لا عالماً

جرت على هذه القاعدة الامم الراقية قديماً وأمم المدنية الحديثة لهدنا فلم يطلق على سقراط وأفلاطون وأرسطو الفلاسفة ألقاب العلماء في بلاد اليونان الا بعد ان قضى كل منهم سنين في التعلم وسنين في التعليم وهكذا رأينا الامم الحديثة لم تطلق على نيوتن وهكسلي وكونت وكانت وكيثي اسم عالم الا بعد ان درسوا الدروس النظامية كلها وبرزوا على رجال عصرهم بفنون مخصوصة أبرزوا فيها آثار علمهم وأثروا في محيطهم

ومن عجيب الاخلاق ان من ينتسبون لشيء من علوم الدين في عهدنا يعز عليهم الا أن تبقى الفاظ العالم والمحقق والعلامة محصورة باهل طبقتهم كأن من يعلم الهندسة أو الطب أو الحقوق أو الصحافة أو السياسة لا يستحق أن يعد في العالمين ولو أيدت عامه أمثلة كثيرة يريدون أن تبقى هذه الالفاظ لهم وكذلك بعض المشتغلين بهذه العلوم الدنيوية يعز عليهم أن يطلقوا الالقب العلمية على من لا يعلمون علومهم في حين رأينا صاحب ارشاد القاصد وصاحب كشف الظنون عدا العلوم كلها دينية

ودنيوية وسميهاها كلها علوماً حتى السحر والطلسمات والشعبذة فذكر الاول من أنواعها مئة نوع والثاني مئة وخمسين نوعاً

وغريب كيف أخرج بعضهم في القديم اسحق بن ابراهيم الموصلى من سلك الفقهاء وكان أحرى أن يعد بينهم لانه يلحن الانغام ويخترع ضروب الغناء ويشغل بالآلات الطرب مع انه ليس دون علماء عصره بعلمهم ولكن غلب عليه الغناء فعدوه في الندماء كما غلب الشعر على بعضهم فعدوه في الشعراء أمثال أبي نواس وما هو في الحقيقة الا من كبار علماء العربية

وانا اذا استقرينا التاريخ على اختلاف العصور نجد أن المنصفين من المؤرخين يذكرون العالمين بغير العلوم الدينية كما يذكرون علماء الدين لانهم كلهم أعضاء نافعون في المجتمع فقد كان خالد بن يزيد الاموي من أهل القرن الاول عالم قريش بالكيمياء والطب بصيراً بهذين العلمين وكان أبو الفضل الحارثي من أهل القرن الخامس عالماً بالهندسة والفلك والحساب والتقسيمات والهيئة ونقش الرخام وضرب الخيط والطب ومحمد القيسراني من أهل القرن الخامس أيضاً عالماً بالمساحة والميقات والفلك ورضوان الخراساني من أهله أيضاً عالماً بالرياضيات وأبو المجد ابن أبي الحكم من أهل السادس عالماً بالطب والهندسة والنجوم والموسيقى والعدد والغناء والايقاع والرمر وسائر الآلات عمل ارغناً وبالغ في اتقانه وكان ابن الصلاح من أهل السادس عالماً بالحكمة متميزاً بالطب وموفق الدين بن المطران من السادس عالماً بالطب والفلسفة وابن المؤيد العرضي ورفيع الدين الجيلي وعز الدين الاربلي من أهل السابع علماء بالفلسفة والرياضيات

وهكذا لو استقصينا كتب التراجم لعثرنا من أسماء المشتغلين بغير العلوم الدينية على سلسلة طويلة وكلهم أطلق عليهم اسم العالم والمحقق والامام والعلامة على رغم أنوف المكابرين وذكرتهم الاعصاراً باثارهم أكثر ممن جعلوا مناصب الدين والقابيه سبباً الى الدنيا ونيل الخطوة من العامة والزلفى من السلاطين والامراء وقد رأينا بعض المشتغلين بعلم الشريعة لعهدنا يتخلصون من اطلاق لفظ عالم وعلامة على من لم يتزى بزيمهم الخالص بأن يطلقوا عليه اسم السكاتب على ان لفظه كاتب التي يحتقرونها قل في المعدودين من يستحقها قال ضياء الدين بن الاثير

في المثل السائر ينبغي للكاتب أن يتعلق بكل علم حتى قيل كل ذي علم يسوغ له أن ينسب نفسه إليه فيقال فلان النحوي وفلان الفقيه وفلان المتكلم ولا يسوغ له أن ينسب نفسه الى الكتابة فيقول فلان الكاتب وذلك لما يفتقر اليه من الخوض في كل فن اه

وهذا التحكم البارد في الحظ ممن اخصوا في بعض الفنون التي يجهلها أكثر المتعممين ولا يعدونها علما في نظرهم تخرج كثيراً من الأئمة من عداد العلماء بحسب عرفهم ممن لم تكن الكتابة الا من جملة ما يعلمون أمثال الجاحظ فانه بحسب عرفهم كاتب فقط لانه مجيد في الانشاء للغاية وكذلك القاضي الفاضل وابن خلدون وابن فضل الله وأبو الفدا وغيرهم من مشاهير العلماء الذين كانوا أئمة في الانشاء هذا لان أولئك الاعلام لم يؤلفوا أو لم يريدوا أن يؤلفوا في الفقه والاصول والكلام والحديث على حين ورد في الكتاب العزيز « يعلمه علماء بني اسرائيل » فاطلق تعالى عليهم لفظ علماء وجاء فيه « والذين أتوا العلم درجات » قال الراغب ان هذا تشبيه منه تعالى على تفاوت منازل العلوم وتفاوت أربابها

ولقد شاهدنا ما يضحك من تحكم بعض أرباب الصحف السيارة في الالقاب العامية حتى آل الامر ببعض الفضلاء أن يستنكفوا من ذكر أسماءهم بين أناس لا يباحقون غبارهم بحال لان منشىء كل صحيفة يعطى من الالقاب لمن يحبه ما يستحى العاقل من اطلاقه على أفضل أهل العصر ويمنع ذلك عن المستحق يريد بذلك اسقاطه حتى قال بعضهم : من العلامة أن لا تكون للمرء علامة ، فما دامت لفظة علامة تطلق على المغفلين من الطلبة فأجدرب من يستحقون هذه اللفظة أن يزهّدوا فيها وهكذا لفظ « الاستاذ » و « المعلم » و « الفاضل » وهذه اللفظة اليوم تطلق على تسعة أعشار من يقرأون ويكتبون .

وبعد فان سلسلة الارتقاء وسلسلة الانحطاط نمط واحد يتبع بعضها بعضاً في كل أمة ، والتغالى في الالقاب من جملة تعلق الامة بل من يطلق عليهم الخاصة منها بالقشور دون اللباب . وما أجدر أرباب الصحف والمجلات أن يتخلوا عن هذه الألقاب التي لا ميزان لها ولا مقياس وأن يذكروا الاسماء مجردة كما هو اصطلاح الامم الراقية كالانكليز والاميركان والفرنسيين والالمان بل كما كان

اصطلاح أجدادنا العرب صدر الاسلام والجديرون بالوصف تم أوصافهم عنهم من مثل التعليم زمنياً وتخرج طلبه راقين أو الاجادة في التأليف وغير ذلك من سمات الفضل والعلم قال المقدسي أن مراتب السادات مثل جليل وفاضل رسم الرسائل لارسم التصانيف . والجرائد والمجلات كالكتب لا تخرج عن حد التأليف في صورة أخرى ولذا وجب ان تعرى من ألفاظ التمجيد ولا سيما إطلاق الألقاب الهامية على من تذكرهم لان في ذلك تضليلاً للعقول واستهزاء بمقادير أهل الاقدار

التهيين في الالبسة^(١)

ليس أغرب من هذا الشرق ترى فيه الاختلاف في الافكار كما تراه في الاديان بل تراه في اختلاف الهواء والماء . وقد وفق الغرب الى توحيد البسة أهله في القرون الاخيرة أما الشرق فلم يزل يتخالفه في ذلك على نحو ما كان عليه في القرون الوسطى قرون الظلم والهمجية

اختلاف المشاركة في البستهم قديم فقد كان للقضاة والملاجناد وللعلماء والعامّة ألبسة خاصة بهم بل كان اللباس تابعاً للأقاليم فابن الحجاز يلبس ما لا يلبسه ابن الشام وهكذا نجد لو طفت الأقاليم ودرست المدنيات .

وكان لاهل الذمة في الاسلام لباس خاص بهم وهو من التحككات السياسية التي دعا اليها العرف لا الدين وليس في الدين ما يدل على تمييز المسلمين بلباس خاص فقد اشترط الخليفة الثاني في كتاب الجزية الذي كتبه لأهل الذمة أن يؤخذوا بلبس الغيار وهو علامة لهم كالزناز ونحوه ولما تبسط الفاتحون في مناحي السلطان كان من جملة واجبات المحتسب كما في نهاية الرتبة في الحسبة أن يأخذ الذميين بلبسهم فان كان يهودياً عمل على كتفه خيطاً أحمر أو أصفر وان كان نصرانياً عمل في وسطه زناراً أو علق في حلقه صليباً وان كانت امرأة لبست خفين أحدهما أبيض والآخر اسود واذا عبر الذمى الى الحمام ينبغي أن يكون

(١) نشرت في المجلد الرابع من مجلة المقتبس

في حلقة صليب أو طوق من حديد أو نحاس أو رصاص ليختبر عن غيره
وفي كتاب الخراج لأبي يوسف أن لا يترك أحد منهم يتشبه بالمسلمين في
لباسه ولا في مركبه ولا في هيئته ويؤخذوا بأن يجعلوا في أوساطهم الزنارات
مثل الخيط الغليظ يعقده في وسطه كل واحد منهم وبأن تكون قلانسهم
مضربة قال وان عمر بن الخطاب أمر عماله أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزي أى
أن تكون قلانسهم طوالا مضربة وروى عن عمر بن عبد العزيز انه كتب الى
حامل له فلا يلبس نصراني قباء ولا ثوب خز ولا عصب وقد ذكر لي أن كثيراً
من قبلك من النصارى قد راجعوا لبس العمام وتركوا المناطق على أوساطهم
واتخذوا الجمام والوفر وتركوا التقصيص ولعمري لئن كان يصنع ذلك فيما قبلك
ان ذلك بك لضعف وعجز ومصانعة

وفيا اطماننا عليه من الكتاب إشارات طفيفة لاختلاف أزياء النسمين في
العصور الاسلامية وما هذا الاختلاف في الحقيقة ناتج الا من التحكم البارد
غالباً . قال ابن الاثير في حوادث سنة ٢٣٥ ان المتوكل أمر أهل الذمة بلبس
الطيالسة العسلية وشد الزنانير وركوب السروج بالركب الخشب وعمل كرتين
في مؤخر السروج وعمل رقعتين على لباس مماليكهم بخالفين لون الثوب كل واحد
منهما قدر أربع أصابع واون كل واحدة منهما غير لون الاخرى ومن خرج من
نساءهم تلبس ازاراً عسلياً ومنهم من لبس المناطق وأمرهم بهدم بيعهم المحدثه
وبأخذ العشر من منازلهم وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب
ونهى أن يستعان بهم في أعمال السلطان ولا يعلمهم مسلم وأن يظهروا في شعائيرهم
صليباً وأن يستعملوا في الطريق وأمر بتسوية قبورهم مع الارض وكتب في
ذلك الى الآفاق .

وقال الذهبي في حوادث ٣٩٨ وفيها هدم الحاكم كنيسة القمامة بالقدس وكانت
فيها أموال وجواهر ما لا يوصف والزم النصارى بتعليق صلبان كبار على صدورهم
واليهود بتعليق مثل رأس العجل على صدورهم وكان الصليب رطلاً بالدمشقي من
خشب ومثال رأس العجل كالمدة وزنها رطل ونصف وأن يشدوا الاجراس في
رقابهم عند دخول الحمامات قال والزم الحاكم صاحب المغرب والحجاز ومصر

والشام أهل الذمة بالصلبان في أعناقهم والبس اليهود العمام السود نكابة واهنة
لبنى العباس قال ابن خلكان وفي سنة اثنتين وأربعمائة أمر الحاكم النصارى واليهود
الا الخيابرة يلبس العمام السود وان تحمل النصارى في أعناقهم الصلبان ما يكون
طوله ذراعاً ووزنه خمسة أرتال وأن تحمل اليهود في أعناقهم قرامى الخشب على
وزن صلبان النصارى وأن يكون في أعناق النصارى اذا دخلوا الحمام الصلبان
وفي أعناق اليهود الجلاجل لتمييزوا عن المسلمين . قلنا وكان في الحاكم لوثنة وجنة
يأمر اليوم بأمر فينهى عنه في الغد على ما قال المؤرخون .

وذكر الذهبي في حوادث سنة سبعمائة ان النصارى واليهود البست بمصر
والشام العمام الزرق والصفير واستمر ذلك . وسنة ٧٣٤ الزمت النصارى واليهود
ببغداد بالغبيار ثم نقضت كسنا لسيهم ودياراتهم وأسلم منهم ومن أعيانهم خلق كثير
منهم سديد الدولة وكان ركناً لليهود . وروي لسان الدين بن الخطيب ان اسماعيل
ابن فرج الخزر جى من ملوك الاندلس اشترى في اقامة الحدود واراقة المسكرات
وحظر تجلى القينات للرجال في الولا ثم وقصر طريقهم على أجناسهم من الناس
وأخذ لليهود الذمة بالتزام سمة تميزهم واشارة تشهرهم وليوفى حقهم من المعاملة
التي أمر بها الشرع في الخطاب والطرق وهو شواش (جمع شاشية) أصفر .
وذكر صاحب المعجب في سيرة أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن انه
أمر في آخر أيامه أن يميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم
وذلك ثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل الى قريب من أقدامهم وبدلاً من
العمام كلونات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ الى تحت آذانهم فشاع هذا
الزى في جميع يهود المغرب ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدرًا من أيام ابنه أبي
عبد الله الى ان غيره أبو عبد الله بعد أن توسلوا اليه بكل وسيلة واستشفعوا
بكل من يظنون ان شفاعته تنفعهم فأمرهم أبو عبد الله بلباس ثياب صفير وعمام
صفير فهم على هذا الزى الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ وانما حمل أبا يوسف على
صنعه من أفرادهم بهذا الزى وتمييزه اياهم به شكه في اسلامهم وكان يقول لو صح
عندى اسلامهم اتركهم يختلطون بالمسلمين في أنكحهم وسائر أمورهم ولو صح
عندى كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريتهم وجعلت أموالهم فيئاً للمسلمين

ولكنى متردد في أمرهم ولم تنعقد عندنا ذمة لليهودى ولا نصرانى منذ قام أمر المصامدة ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة انما اليهود عندنا يظهرن الاسلام ويصلون في المساجد ويقرءون أولادهم القرآن جارين على ملتنا وسنتنا والله أعلم بما تكنه صدرهم وتحويه بيوتهم اه

وقال ابن أبى أصيبعة : حدثنى الشيخ موفق الدين بن البورى الكاتب النصرانى قال لما فتح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الكرك أتى الى دمشق الحكيم موفق الدين يعقوب بن سقلاب النصرانى وهو شاب على رأسه كوفيه وتخفيفة صغيرة وهو لابس جوخة ملوطة زرقاء زى أطباء الفرنج وقصد الحكيم موفق الدين بن المطران وصار يخدمه ويتردد اليه لعله ينفعه فقال له : هذا الزى الذى أنت عليه ما يعشى لك به حال فى الطب فى هذه الدولة بين المسلمين وانما المصلحة أن تغير زيك وتلبس عادة الاطباء فى بلادنا ثم أخرج له جبة واسعة عنابية وبقياراً مكحلاً وأمره أن يلبسهما . وكان والد المهذب المعروف بالخطير مرتباً على ديوان الاقطاعات وهو على دين النصرانية فلما علم أسد الدين شيركوه فى بدء أمره بمصر انه نصرانى وانه يتصرف فى (عمله) بلا غيار نهاه وأمره بغير النصارى ورفع الذؤابة وشد الزنار وصرفه عن الديوان فبادر هو وأولاده فاسلموا على يده فأقره على ديوانه مدة ثم صرفه عنه فقال فيه ابن الذرورى

لم يسلم الشيخ الخطير لرغبة فى دين احمد

بل ظن ان محاله يبتقى له الديوان سرمد

والآن قد صرفوه عنه فدينه فالعود احمد

ولما أمر شيركوه النصارى بلبس الغبار وأن يعمموا بغير عذبة قال عمارة الحنفي

يا أسد الدين ومن عدله يحفظ فينا سنة المصطفى

كفى غياراً شد أوساطنا فما الذى يوجب كشف القفا

هذا ما كان عليه الاختلاف فى الازياء بين أهل الوطن الواحد وأكثره كما

ترى ناشيء من ملوك أو فقهاء متعصبين تعصباً ظاهراً مثل المتوكل والحاكم

بأمر الله ولم يسمع بأن رجال الجند فى الاسلام مثل الرشيد والمأمون وصلاح الدين

ونور الدين تحكوا هذه التحكيمات والله أعلم اه

السلطان (١)

رحم الله السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ما كان أعقله في الملوك وأبصره بعواقب الامور فقد كان أول العارفين بأن مزج الدين بالدنيا من أضر ما ينهك قوى الامم فتفقد الصفقتين ولا تفوز بالحسينين . ولذلك كان لا يعتمد في تدبير ملكه وقتال عدوه الا على أهل الرأي من الساسة في زمنه ممن استخلصهم في تدبير ملكه كالقاضي الفاضل ومن كان على شاكته

ولطالما أراد فقهاء عصره على أن يعمل بمشوراتهم في زحزحة الصليبيين عن البلاد ولو وجدوا منه مصغياً لأقوالهم لالتوى عليه القصد ولما وفق الى ما لم يوفق اليه سلطان قبله ولا بعده من دفع صائل تلك الجيوش الجرارة التي انكفأت على الشرق الادنى واستباحته واستصفته أو كادت . والله أعلم ماذا كان مصير الحرمين الشريفين وبيت المقدس الآن لو كانت دخلت أصابع السياسة الخرقاء في طرد أهل الصليب عن مصر والشام

كان صلاح الدين صلاحاً للدين والدنيا يعرف من يعمل بأرائهم من رجاله ولذلك ترك الجامدين من أدعياء العلم جانباً يصدق عليهم من مكارمه ما يقطع به ألسنتهم ويريحهم من عناء الطلب والنصب ، واذا رفعوا رؤوسهم وأشاروا اليه بأنه نبت مشوراتهم ظهرياً أشار اليهم بلسان الحال بأن السياسة ليست من شأنهم وأنه يكفئهم أن يحسنوا الاضطلاع بشؤونهم الخاصة وما يفرض عليهم المجتمع العمل به وهم اذا جودوه وأحسنوه يحسنون للامة كل الاحسان

هكذا كان السلطان صلاح الدين في القرون الوسطى يعرف من أين تؤكل الكتف في فصل السلطتين الدينية عن الدنيوية . وسلطان المغرب الاقصى الحالي وهو في هذا العصر وناهيك به يقيم على أبواب أوروبا وتؤثر فيه عوامل أرباب السلطة الدينية من اضراب ماء العينين ومن لف لفه من مشايخ الطرق

(١) نشرت في جريدة المؤيد يوم ١٣ رجب سنة ١٣٣٠ (١٩٠٧)

وزعانة المتفهمة وغوغاء المخرقين ممن يدعون الكشف والسحر والطلسمات
ما نظن أن غلو مولاي عبد العزيز في الافضال على أولئك الجامدين وتقريبهم
منه والعمل بمشوراتهم ناتج عن تدين حقيقي فإله أعلم بما هنالك . ولكن تلك
الفئة توصلت بدهائها على توالي العصور أن تجعل لها موقعا من نفوس سلاطين
المغرب فأثرت فيهم بما تريد وصرفتهم على أمرها في تدبير ذلك الملك الضخم وفض
شؤونه الداخلية والخارجية

يشهد أولئك الجامدون لسلاطين المغرب بامارة المؤمنين ، ويقر هؤلاء
لأولئك بأنهم ورثة الانبياء والمرسلين ، وهكذا فالنفع متبادل والمصلحة مشتركة
فهم على حد المثل السائر « أضيء لي أقدم لك »

جاء عهد على المملكة العثمانية في التاريخ كادت تفي بما منيت به مملكة المغرب
الاقصى من دخول رجال الدين في السياسة والعبث بضعف عقولهم في شؤون
الامة وعقد سلمها وحرابها والهيمنة على عمراتها والاشراف على خصوصياتها
وعومياتها ولكن بعض سلاطينها وزرائها أدركوا عاقبة تأثير رجال التكايا
في عقول أهل السياسة والرأى ومنذ ذلك العهد وأظنه كان على زمن السلطان
سليمان القانوني دخلت الدولة في طور الحكومات المدنية .

ولو ظلت العناية بساكنى التكايا والاخذ بأرأهم في المملكة العثمانية لما
كنا اليوم نلبس الطربوش ولا السراويل والسترات الافرنجية بل ولا نطبع
الكتب والمصاحف لان الفقهاء في الاستانة حرموا كل ذلك عندما أراد السلاطين
إدخاله في بلادهم !

نعم لو ظل العمل بتلك الآراء الغربية لما كانت الدولة العثمانية بجنديتها وتنظيم
شؤون ادارتها بأرقى من حكومة الافغان الآن وما العهد ببيعيد بتحريم أهل
الجمود على أميرها في العهد الاخير اجتماعه بحاكم الهند أيام رحلته مؤخرأ اليها
وتناول طعام الافرنج ولبس لباسهم ومعاشرتهم بالمعروف . ولو لم يكن للامير
جيش يستमित في الدفاع عنه اذا طرأ طارئ لكنا سمعنا بان ذلك الدهماء من
الاغبياء تمكن من التغلب على أميرهم ووسدوا الحكم الى من ترضيهم سياسته
وحالته وشايعهم على أفكارهم وهي لو صحت مرة لكذبت مرات وأفسدت على
الناس أمرهم

من لنا بمن يلتقى على مسامع مولاي عبد العزيز هذه النصيحة ليتخذ له بطانة من أهل الرأي الرجيح حتى ولو بجلهم من مملكة أخرى للاستعانة بهم على تدبير مملكته . ليت من يقرأ له هذه الكلمات القليلة ولو ينقلها في قطعة من الورق لان قراءة الجرائد محرمة عند السلطان بفتوى من علمائه فما الحال فيما تخوض فيه من الافكار

حرية الامم^(١)

البشر سائرون في طريق النظام والحرية آخذون نحو الكمال ينشؤون في حياتهم القومية ، على غير نشأة الجاهلية ، ويرون السعادة الابدية في احترام الحقوق الشخصية والعمومية ، والقيام على أسباب الحياة المادية والمعنوية .
ما أتى على الناس دهر مثل هذا ، دخلت فيه مصالحهم تحت قوانين مقررة ، وأصول محررة ، وما عهدت للعالم سلطنة عمت البحر والبر ، والنفاجر والبر ، والابيض والاسود ، بل والنبات والجماد ، مثل هذا القرن الغريب في شأنه ، الغريب في سلطانه ، فكأن روح الارتقاء كالنسم تسرى في الهواء والماء وتنزل احشاء الكبير ، كما تحل في صدر الصغير ، ولكنها نسائم محيية لا مميتة ، وجرائم زفعة لا ضارة

العلم نور يصعب بعد الآن أن يعم فريقاً دون آخر ، وينير بلد أو يغفل آخر ، وبتأثيره لن يقوى الظالمون على أتيان ما كانوا يأتونه من هضم حق المستضعفين والمغلوبين

هذا النور يتقبله أفراد من عليمة كل أمة ممن رجحت أحلامهم وسامت أبصارهم وبصائرهم فيموليهم ارتقاء يتقلب في أدواره كالجنيين ، حتى تضعه أمه ثم تربيته وتغذيه الى أن يكون منه رجل تام الادوات أو ناقصها بحسب محيطه وبيئته ما ارتقت أمة بصعاليكها ارتقاءها بأعظمتها ، ما فنيت أمة في واحد الاضعف

أمرها واستبيح حماها ، وما وكلت شأنها لاهل العقول الكبيرة الا قويت .
وما سعادة الامة الا بقدر ما لديها من هذه العقول المثقفة التي تفكر وتمحض ،
وتدبر وتدرّب ، وعلى نسبة غنائهم ومضائهم ، يكون ارتقاء أمتهم .
كل أمة نام خيرة أبنائها عن الطلب بحقوقها يضيعها مرور الزمن . وكل
شعب استسلم وسالم تفقد منه غريزة الشجاعة اللازمة في عراقك هذا العالم فيندل
ويخزي . بل كل أمة لا يتولى أهل الرأي منها أمرها ، تضعف وتصير في مؤخرة
السفينة ، البشرية مقطورة بغيرها مستعبدة له .

فالامة التي لا تسعى الى تكثير سواد أرباب الرأي وتأخذ بأيديهم ، ليم
لهم ما هو أرقى ما تنصرف اليه اطعامهم من حياتهم ، من تحسين حال المحتفين بهم ،
هي أمة ميتة شريرة ظالمة ، عاملة على دمارها
ولو جئت تستفتي التاريخ في هذا الشأن لقرأت فيه مئات الامثلة مما فيه عبرة
لمعتبر ، وزاجر لمزدجر ، وما لنا والا يغال فيه الى القديم ففي التاريخ الحديث
أمثلة كثيرة . فقد نالت الولايات المتحدة ما نالت من الاستقلال بفضل فئة
من رجالها تعلموا على الامة الانكليزية وهم خيرة أبنائها فبزوها وتخلصوا منها ،
وكذلك كان من جمهوريات الجنوب فانها نزع ربقها من حكم اسبانيا والبرتغال
لما ارتقت عقول أبنائها وتولى زعامتها عقلاؤها

ولو تقصيت تاريخ كل أمة صغيرة كانت أو كبيرة شرقية أو غربية نالت
حظها من نور العلم والسعادة الحقيقية لا تجده نشأ الا بفضل أهل الرأي منها ممن
تجردوا عن سفاسف الامور ، ونزهوا عن الاهواء النفسية

وتاريخ انكلترا والمانيا واطاليا وفرنسا واليابان شاهد عدل أبد الدهر بأن
العقل هو الذي دبر ما دبر ، وان ما نراه ونعجب به من آثار اجتماعهم ونظامهم ،
هو من عمل السنين ونتيجة الانكماش والتوفر وحسن التدبير . ولقد نرى العقلاء
يصرفون الامر بوسع حكمتهم ، ويدبرون أمور قومهم تدبير من طب لمن حب
الامر تقتبس بعضها عن بعض ، فان كانوا قادة حركتها عقلاء تأخذ عنهم النافع ،
وان كانوا جهلاء يختلط عليها الامر ، وتتناول الغث والسمين بلا تمييز . فقد كان
من نتائج الثورة الفرنسية سنة ١٨٤٨ أن انعكست صورة منها على المانيا وكانت

العقول قد تخمرت ، والنفوس قد استعدت ، فحدث فيها انقلاب عام ، وقام العامة بتدريب الخاصة يطالبون الحكومة بالاصلاح ، فاستسامت لمطالبهم لانها رأت الحركة عامة . ومن عادة الحكومات أن لا تحرك ساكناً اذا رأت السواد الاعظم عليها متألمين

قال صاحب كتاب المانيا الحديثة ونشورها^(١): «نخاف الامراء وطأطؤار رؤسهم من عاقبة هذا الانتفاض ، وخف ملك ورتمبرغ وكبار دوقات بادوهيس ومجلس الشيوخ في فرنكفورت فأصدروا أمراً باطلاق حرية الصحافة . وأصاب مجلس الامة في فرنكفورت دوار عظيم ، فعزم على اعادة النظر في صك الوحدة الوطنية وجمع شتات الامة الالمانية ، ودعا الحكومات الالمانية لارسال مندوبين عنها ليتفاوضوا في هذا الشأن .

ونشأت اضطرابات في مونيخ أدت الى تنازل الملك لويز الاول عن الملك وارتقاء ماكسيمليان الثاني الى العرش وتأليف وزارة حرة ، وتعدى الحال الى فيينا فنشأت فيها ثورة قضت على طريقة مترنيخ في الحكم ، ونهضت كل من المجر وايطاليا الى مثل هذا الغرض . ونشبت الفتنة في برلين وأصبح الملك والعاصمة تحت أمر الثائرين ، وأندكت معالم الحكم المطلق

وكان في رأس تلك الاعمال جماعة من أهل الطبقة الوسطى المهذبة من الاساتذة والكتاب والمحامين والاطباء والتجار وأرباب المعامل كلهم يطالبون باتحاد كلية الامارات الالمانية واجلال الحرية محل العبودية ، وتدور أهم مطالبهم على دعوة دار ندوة وطنية واطلاق حرية الصحافة وانشاء مجلس محكمين ، والاستعاضة عن جيوش دائمة بتسليح الامة

وكان بين تلك الصفوف من الحزب الحر فريق عظيم يرى الاعتدال خيراً من التطرف وأن يعمد الى مخاطبة الملوك والامراء في تحقيق مطالب الاصلاح وفريق يرى الغاء سلطة الاشراف والملك وانشاء نظام جمهوري ووراء تينك الطبقتين سواد عظيم من السكان ، يطالبون ما عدا الاصلاحات السياسية باصلاحات اجتماعية ، تكون فيها السعادة العامة ، ويرادها مساواة الجميع والغاء امتيازات كبار المزارعين

في القرى واصلاح القانون الصناعى فى المدن ، وحماية أرباب الصنائع من منافسة
المعامل ، وحماية رجل المعمل من مديره

كل هذه الحركة الثورية أدت الى اجتماع دار الندوة فى فرنكفورت وقد
طلب الشعب تنظيمها واجتماعها بنفسه وبواسطة أهل الثقة والرأى منه ولم يسمع
الحكومة إلا أن تدير هذه الحركة ولكنهم طلبوا اجتماع دار الندوة ورفضوا
بالانتخاب ورضوا بأن يجتمع النواب الذين ينتخبون بالانتخاب العام ليجتمعوا
ويتفاوضوا فى مصالح البلاد العامة ويساعدوا الامراء وصار القول الفصل للاحرار
ومن ذلك نشأت الوحدة الالمانية التى بهرت آثارها

هذا ما جرى فى المانيا فى سبيل التحرير من رق العبودية ، وغريب فى أمر
الالمان والانكابت فانهم نالوا حريتهم من ملوكهم بالتدريج ولم يريقوا فيها دماء
على العكس فى الفرنسيس فانهم نالوا ما نالوا بعد أن بذلوا مهجاتهم ، فليت كل
أمة قضى عليها بالاستعباد تنال حريتها على أيدي عقلائها بدون فتنة كما نالتها
المانيا وانكابتا فلا خير فى القنن مهما كانت النتائج ولا خير فى أمة لا يتولى
عقلاؤها شؤونها

صلاح الدين

ومدونو سيرته

لو كان تاريخ العرب يدرس فى مدارسنا على أصوله لوجب أن تدرس سيرة
السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر والشام واليمن والجزيرة
كما تدرس سيرة الخلفاء الراشدين فقد مضت القرون بهذا الخليفة المأمون العباسى
ولم ينشأ للعرب ملك كصلاح الدين بعقله وعدله وحلمه وحسن بلائه . وقد دونت
سيرته فى عهده فكان عند المشاركة والمعاربة انموذج الملك الحازم العاقل وأحق
ما يرجع اليه فى سيرته رحمه الله من الكتب كتاب النوادر السلطانية والمحاسن
اليوسفية لبهاء الدين بن شداد من قضاة الملك الناصر وكتاب الفتح القسى فى

الفتح القدسي لعلماد الدين الكاتب أحد كتّاب ديوانه ثم يؤخذ ممن كان في عصره أو قريباً منه أمثال ابن الاثير صاحب الكامل وأبي الفدا صاحب حماة أو عن صاحب تاريخ الروضتين في أخبار الدواتين لأبي شامة وذيله له أما كتاب النوادر فهو على أسلوب المؤرخ كتب بعبارته مرسلّة لا تكلف فيها ، صيغ فيه اللفظ على قدر المعنى بخلاف الفتح القسي فانه راعي فيه السجع من أوله الى آخره حتى يكاد يمل قارئه وتشغله الانفاظ والجناسات والترصيع وعويص اللغة عن تدبر المعنى ودخوله الآذان بلا استئذان على انه من سيجعه في الاحيان ما يجيء عفواً القريحة فيكون المعجب المطرب مثل فصل « ذكر حال نساء الفرنج » فانه أبدع فيه كل الابداع وان كان على ما يظهر ركب مركب الغلو في تمثيل حالهن .

ولقد تدبرنا سيرة الملك الناصر صلاح الدين منذ ولد في قلعة تكريت (٥٣٢ هـ) وكان والده أيوب بن شاذي والياً بها الى أن جاء الموصل مع والده وقد ترعرع الى أن انتقل معه الى الشام وأعطى والده بملبك الى أن اتصل بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي الى أن ذهب صلاح الدين مع عمه أسد الدين شيركوه الى مصر الى أن ملك مصر وأزال دولة العاضد الفاطمية وخطب للدولة العباسية الى أن فتح الشام واستخلص أكثر بلاد الساحل الشامي والقدس من الافرنج الى أن توفاه الله في دمشق بعد جهاد أربع سنين في الصليبيين — تدبرنا كل هذا فلم نحص له زلة ولا شهيدنا له الا ما ينطبق على مكارم الاخلاق والعدل المتناهي والحلم الذي دونه حلم أحنف ومعاوية ولولا ما دسه الفقهاء عليه من تزيين قتل الشهاب السهروردي الفيلسوف فخرت صحيفته حياته كلها بيضاء نقيه قال ابن شداد ان هذا السلطان كان « مبنضاً للفلاسفة والمعطلة ومن يماند الشريعة ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر أعز الله أنصاره بقتل شاب نشأ يقال له السهروردي قيل عنه انه كان معانداً للشرائع معطلاً وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره وعرف السلطان به فامر بقتله فطلبه اياماً فقتله » هذه رواية ابن شداد وهو من الفقهاء أورد هذه القصة في معرض ان السلطان يعظم شعائر الدين واثبات انه يقول بالبعث والنشور ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار

الا ان ابن أبي أصيبعة قال في حقيقة قتل الشهاب السهروردي انه لما أتى الى حلب
ونظر بها الفقهاء ولم يجاره أحد كثير تشنيعهم عليه فاستحضره السلطان الملك
الظاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب واستحضر الاكابر
من المدرسين والفقهاء والمتكلمين ليسمع ما يجري بينهم وبينه من المباحث والكلام
فتكلم معهم بكلام كثير وبأن له فضل عظيم وعلم باهر وحسن موقعه عند الملك
الظاهر وقربه وصار مكيناً عنده مختصاً به فازداد تشنيع أولئك عليه وعملوا
محاضر بكفره وسيروها الى دمشق الى الملك الناصر صلاح الدين وقالوا ان بقي
هذا فانه يفسد اعتقاد الملك الظاهر وكذلك ان أطلق فانه يفسد أي ناحية كان بها
من البلاد وزادوا عليه أشياء كثيرة من ذلك فبعث صلاح الدين الى ولده الملك
الظاهر بحلب كتاباً في حقه بخط القاضي الفاضل وهو يقول فيه ان هذا الشهاب
السهروردي لا بد من قتله ولا سبيل الى اطلاقه ولا يبقى بوجه من الوجوه
ولما بلغ شهاب الدين السهروردي ذلك وأيقن انه يقتل وليس جهة الى الافراج
عنه اختار أن يترك في مكان مفرد ويمنع من الطعام والشراب الى أن يلتقي الله
تعالى ففعل به ذلك وكان في أواخر سنة ست وثمانين وخمسة بقلة حلب وكان عمره
نحو ست وثلاثين سنة . قال صاحب طبقات الاطباء ان السهروردي صار له شأن
عظيم عند الملك الظاهر وبجث مع الفقهاء في المذاهب وعجزهم واستطال على أهل
حلب وصار يكلمهم كلام من هو أعلى قدرأ منهم فتمصبوا عليه وأفتوا في دمه
حتى قتل وقيل ان الملك الظاهر سير اليه من خنقه ثم ان الملك الظاهر بعد مدة
نقم على الدين أفتوا في دمه وقبض على جماعة منهم واعتقلهم وأهانهم وأخذ منهم
أموالاً عظيمة .

هذه الغلطة الوحيدة هي التي أحصيت لصلاح الدين وهي في الحقيقة انتقام
المتفهمة من المتفلسفة أو النقل من العقل - وهذا الانتقام ما برح على أشده في
كل زمان ولا سيما منذ القرن السادس الى آخر العاشر فانه قتل في بلاد الاسلام كثير
من الاطام أو اضطهدوا وأوذوا من قبل أعداء الفلسفة وما عدا ذلك فان
صلاح الدين لا يلام على قتل أحد من الصليبيين لانهم افسدوا هم في أسراه
وطاهدوا نجانوا ومثل من قتلهم من المصريين للقضاء على الدولة العبيدية أو من

قاموا يدعون اليهم بعد أن زالت دولتهم وفي جملتهم عمارة النبي الشاعر كل ذلك يغتفر له لأنه في سبيل تأييد سلطانه والملك عقيم كما قيل .
ومما ذكره ابن شداد في عدله انه كان رؤوفاً رحباً ناصراً للضعيف على القوي وكان يجلس للعدل كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل اليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً على انه كان في جميع زمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص في كل يوم ويفتح باب العدل ولم يرد قاصداً للحوادث والحكومات . وكان يجلس مع الكتاب ساعة اما في الليل أو في النهار ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ولم يرد قاصداً أبداً ولا متنقلاً ولا طالب حاجة وما استغاث اليه أحد الا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته واعتنى بقصته ولقد رأيتُه واستغاث اليه انسان من أهل دمشق يقال له ابن زهير على تقى الدين ابن أخيه فانفذ اليه ليحضر الى مجلس الحكم وكان تقى الدين من أعز الناس عليه وأعظمهم عنده ولكنه لم يجابه في الحق .

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل على عدله قضية جرت له مع انسان تاجر يدعى عمر الخلاطى وذلك انى كنت يوماً في مجلس الحكم بالقدس الشريف اذ دخل على شيخ مسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطى معه كتاب حكى يسأل فتحه فسألته من خصمك فقال : خصمى السلطان وهذا بساط العدل وقد سمعت انك لا تحبى قلت : وفي أى قضية هو خصمك فقال : ان سنقر الخلاطى كان مملوكى ولم يزل على ملكى الى أن مات وكان فى يده أموال عظيمة كلها لى ومات عنها واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه بها فقلت له : يا شيخ وما أقعدك الى هذه المغاية فقال : الحقوق لا تبطل بالتأخر وهذا الكتاب الحكى ينطق بأنه لم يزل فى ملكى الى أن مات فأخذت الكتاب منه وتصفحته مضمونه فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطى وانه قد اشتراه من فلان التاجر بارجيش اليوم الفلاني من شهر كذا من سنة كذا وانه لم يزل فى ملكه الى أن شد عن يده فى سنة كذا وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه ما وتم الشرط الى آخره فتمجبت من هذه القضية وقلت للرجل : لا ينبغي سماع هذا بلا وجود

الخصم وأنا أعرفه وأعرفك ما عنده فرضى الرجل بذلك واندفع فلما اتفق المثل
بين يديه فى بقية ذلك اليوم عرفته القضية فاستبعد ذلك استبعاداً عظيماً وقال :
كنت نظرت فى الكتاب فقلت نظرت فيه ورأيت متصلاً بالورود والقبول الى
دمشق وقد كتب عليه كتاب حكى من دمشق وشهد به على يد قاضى دمشق
شهود معروفون فقال : مبارك بن نضر الرجل ونحاه كنه ونعمل فى القضية
ما يقتضيه الشرع

ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معى خلوة فقلت له : هذا الخصم يتردد ولا بد أن
نسمع دعواه فقال : أقم عنى وكيلاً يسمع الدعوى ثم يقيم الشهود وشهادتهم وأخرف فتح
الكتاب الى حين حضور الرجل ها هنا ففعلت ذلك ثم احضر الرجل واستدناه
حتى جلس بين يديه وكنت الى جانبه ثم نزل من طراحته حتى ساواه وقال : ان
كان لك دعوى فاذكرها فحرر الرجل الدعوى على معنى ما شرح أولاً فاجابه
السلطان ان سنقر هذا كان مملوكى ولم يزل على ملكى حتى اعتقته وتوفى وخلف
ما خلفه لورثته فقال الرجل : لى بيانة تشهد بما ادعيت ثم سألت فتحت كتابه ففتحه
فوجدته كما شرحه فلما سمع السلطان التاريخ قال عندى من يشهد ان سنقر هذا
فى هذا التاريخ كان فى ملكى وفى يدي بمصر وانى اشتريته مع ثمانية أنفس فى
تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة وانه لم يزل فى يدي وملكى الى أن اعتقته
ثم استحضر جماعة من أعيان الامراء والمجاهدين فشهدوا بذلك وذكروا القصة
كما ذكرها التاريخ كما ادعاه فابلس الرجل فقلت له : يا مولاي هذا الرجل ما فعل
ذلك الا طلباً لمرامح السلاطين وقد حضر بين يدي المولى ولا يحسن أن يرجع خائباً
للقصد فقال : هذا باب آخر وتقدم له بخلمة ونفقة بالغة قد شد عنى مقدارها قال
ابن شداد فانظر الى ما فى طي هذه القضية من المعانى الغريبة العجيبة والتواضع
والانقياد الى الحق وارغام النفس والكرم فى موضع المؤاخذة مع القدرة
التامة اه .

مثل هذا الفاتح العظيم مات ولم يحفظ ما يجب عليه به الزكاة فان صدقة النفل
استترقت جميع ما ملكه من الاموال فملك ما ملك ولم يخلف فى خزانته من الذهب
والفضة الا سبعة وأربعين درهماً ناصرياً وجرماً واحداً ذهباً ولم يخلف ملكاً ولا
دراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الاملاك

وكان رحمه الله يهب الاقاليم وفتح آمد (ديار بكر) وطلبها منه ابن قره ارسلان فاعطاه اياها وهو يعطى في وقت الضيق كما يعطى في حال السعة وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً أن يفاجئهم منهم لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه قال ابن شداد : وكان يعطى فوق ما يؤمل الطالب فما سمعته قط يقول : اعطينا لفلان . وكان يعطى الكثير وييسر وجهه للمطاء بسطه لمن لم يعطه شيئاً وما سمعته قط يقول : قد زدت مراراً فكم أزيد واكثر الرسائل كانت تكون في ذلك على لساني ويدي وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون ولا أخجل منه من كثرة ما اطلبه لهم لاهمي بعدم مؤاخذته في ذلك وما خدمه أحد الا وأغناه عن سؤال غيره وقد سمعت من صاحب ديوانه يقول لى : قد تجارينا عطاياه فحصرنا عدد ما وهب من الخيل بمرج عكا فكان عشرة آلاف فرس ولم يكدر بركب فرساً الا وقد وعد بأن يعطيها لاحمد طلاب عطاياه . وبالجملة فان ما ذكره العماد وابن الشداد عن خلال صلاح الدين ومواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للامور الشرعية وعدله وكرمه وشجاعته واعتماده بأمر الجهاد وصبره واحتسابه وحلمه وعفوه ومحافظته على أسباب المروءة هو العجب العجاب وقررة عين المسامحين والعرب على مر السنين والاحقاب .

يرى الناظر في كتاب العماد الكاتب الاصفهاني انه لم يكدر يغفل تفاصيل الوقائع الصلاحية أو يشذ عنه نادرة من النوادر اليوسفية الايوبية على ضيق عطن النثر والسجع عن قبول هذه المعاني بجملتها ويماب على الاصفهاني كثرة تبجيحه بكتابته فقد ذكر غير ما مرة من كتابه انه كان هو الفرد المقدم في الديوان الصلاحي مع ان ابن شداد ذكر عن نفسه شيئاً من ذلك بالعرض أو رده كجأيته في معرض الكلام عن منائح صلاح الدين ولكن صاحبنا العماد جرى على عادة الفرس في المبالغة سماحه الله

فقال في فتح بيروت : « وكنت يومئذ في مرض قد أزعجني وأعجزني ومضض أجناني واعيون المواد أبرزني وانقطعت عن الحضور عند السلطان وضعفت عن تحرير كتاب الامان فطلب السلطان كل كاتب في ديوانه وكل من يمسك قلما من أفاضل الملك وأعيانه فلم يرضه ما كتبوه ولم يكفه ما رتبوه فجاءني في تلك الحالة

من استملاه منى ومرضت أذهان الاصحاء ولم يعرض ذهني فتسلم بيروت بخطي وأصبحوا وأنا الآخذ والمعطى وكان الناس قد أنسوا بما أسطره وأزبره وأنسوا سوى ما أذكره وأحبره والفوا الصحة فيه فالقوه ولقوا السقم في غيره فانهوه فلم يكن في ذلك التوقيع تعويق بل كله بتوفيق من الله توثيق فما فتح فتح الا بمفتاحه ولا رتق فتق الا باصلاحه ولا جلي ظلام الا باصباحه ولا وري زند الا باقتداحه . اهـ »

وقال من فصل : وكان قد عرض له مرض فانقلب الى دمشق يداوى مزاجه فلما عاد الى الحضرة سأله السلطان : « أين كنت ولم أبطأت وحيث أصبت في المجيء فما أخطأت وقد كنا في انتظارك والسؤال عن أخبارك وهذا أوان احسانك فأين احسان أو انك فأجر بنانك بجرأة بيانك واجز في ميدانك وما للبشائر (بفتح القدس) الا واصفها وللفرائد الا راصفها وللنصاحة الا قسها وللحصافة الا قيسها وكان قد جمع أمس كتاب دواوينه على انشاء كتب ما ارتضاها واقتضاب معان ما اقتضاها وكانوا سألوه في كتاب الديوان العزيز فقال : لهذا من هو أقوم به وعناني فلما ساءني ناداني واستدنانى فصرفت الى امثال أمره عناني وسلم الى الكتب التي كتبوها بالانفاظ التي رتبوها وقال غيرها ولا تسيرها وغرضه اني اعدل موجهها وابدل مشبجها واقترع المعنى البكر للفتح البكر وأوشح ذكر آياته بآيات الذكر فاستجديتها فما استجديتها واستملحتها فما استملحتها وشتمتها وبها سهك وكشفتها وسترها هتك وكانوا قد تعاونوا عليها وفيها لهم شرك فشرعت في اقتضاض الابكار واقتضاء الافكار واقتراح القريحة واقتراء رحاب الكلام الفصيحة الفسيحة وافتتحت في بشرى الفتح بكتاب الديوان العزيز وأوردت المعنى البليغ في اللفظ الوجيز ووشحت ووشعت وشعبت وأشعبت وأطأت وأطبت وصبت وأصبت وأعجزت وأعجبت وأطريت وأطربت وأبعدت وأبدعت ورصعت وصرعت وطابقت وجانست ووافقت وأنست . . . اهـ »

وقال في الوقعة العادلية : « ولما عرفت بالواقعة والنصرة الجامعة صدرت ثلثين أربعين كتاباً بالبشارات بأبلغ المعاني وأبرع العبارات وقتل اذا نزل السلطان وجد الكتب حاضرة والبشائر شائرة وركبت أنا وانقاضى بهاء الدين بن شداد

لمشاهدة ما هناك من أشلاء صرعى وأجساد فما أعجبل ما سلبوا وعروا وفرّوا وقرّوا
وقد بقرت بطونهم وفقئت عيونهم ورأينا امرأة مقتولة لكونها قاتلة وسمعناها
وهي خامدة بالعبرة قاتلة وما زلنا نطوف عليهم ونعبر ونفكر فيهم ونعتبر حتى
ارتدى العشاء بالظلام فعدنا الى الخيام وأخذت الكتب التي نمتها بالبشائر التي
حققتها وجئت واذا السلطان قد استبطاني وعدم اجابتي لما دعاني فما صبر ولا
انتظر ولا ترقبني أن احضر ولا امهل ان اعطى البشارة حقها واجلو بأنوار
المعاني افقها وابلغ بالبلاغة مداها واصبغ بتقليص الضلالة ثوب هداها واصف
بحدود الاقلام ما صنعته حدود السيوف وأروج نقودي عند السلطان واغنيه
عن الزيوف فابصرت عنده مشرفي المطابخ والايات ومدوني الجرائد بالاثبات
وقد كتبوا تلك البشارة الثقيلة الجليلة في رقاع خفيفة بعبارات سخيفة وقد
عطلت الحسنة من حليتها وعروها من بزتها وشوهوا جمالها وأحالوا حالها
فذهب بها المبشرون وسار القاصدون فما كان لتلك الواقعة عند من وقعت
عليها وقع ولا تم لغيل من رام الاطلاع على حقيقتها تقع وأرادوا بدمشق قراءتها
على المنبر فما استحسنتوها ولو وردتهم بزينة عبارتي وبراعتي زينوها وفي تلك
الحال التفت السلطان الى وقال اكتب بهذه البشارة الى بغداد وعجل بها الانقاذ
فقلت في سبيل العتب أنتم تريدون ما اكتبه ولا ترغبون فيما ارتبه وأهذبه
فقال كأنك كتبت البشائر فماتها حتى تهدي الى طرقاتها فقلت ما فاتت وهيئات
هيئات وأخرجت له ما بقى من بشارات البلاد التي أنشأها بالانفاظ والمعاني التي
ابتدعتها وابتدأتها فسارت فسرت البعيد والقريب وخصت من جدها بالخصب
الجديب وصدحت باسجاعها المنابر وصحت بسماعها المفاخر وظهرت بعباراتها العبر
ويهرت بزبرها الزبر وعمرت بمعانيها المغاني وعمت مباهجها مناهج الاقاصي
والأداني . اهـ »

وقال من هذا البحر والقافية « في ذكر لطف من الله في حق خفي كان
السلطان قبل استيلاء الفرنج على عكا بسنة قد عمل ترجمة تفرد بها القاضي بن قريش
لمكاتبة الاصحاب ليكتب بها اليهم ويعود بها الجواب فلم يبق المكاتبة ابتداء
وجواباً بخطي وخرج حكم عكا في الكتابة عن شرطي فقلت لأصحابي ما صرف

الله قلمي عن عكاء إلا وفي عامه أن الكفر إليها يعود وأن النحوس تحلها وترحل عنها السعود واستعاذني الله من استعاذتها وردها إلى شقاوتها بعد سعادتها ولقد عصم الله قلمي وكلمى وعرف شيم مخايل الطاقة من شيمى وهذا قلم جمعت به أشتات العلوم مدة عمرى وما أجراه الله إلا بأجرى فالحمد لله الذى صانه وعظم شأنه وما ضيع احسانه وهو للفقير والفتيا وصالح الدين فى الدنيا وما عرف الا بعرف فما صرف إلا عن صرف وما صفارته الا فى نجح وما أسفاره الا عن صبح وما تجارته الا لربح فهو يمين لدولة وأمينها ومعين الملة بل معينها بمداده يستمد امدادها وبسداده للشعور سدادها ودواته دواء المضلات وبعقده حل المشكلات وبخطه حط عوادي الخطوب وبقطه قط هوادى القطوب ووبريه برىء الامراض وبدره در الاعراض وبدره انتظام عقود العقول وبداريه ابتسام الاقبال والقبول وبجزيه جرى الجياد للجهاد وبسعيه سعى الامجاد والأنجاد وبحركته سكون الدهماء وببركته ركون الرجاء فما كان الله ليضيعه فى صون ما لا يصونه وعون ما لا يعينه خفت على عكاء من وقوف قلمي عنها وكان قد ألهمنى الله فانه صانه ولم يصنها وشكرت الله على هذه اللطيفة والعارفة الطريفة اه .

وقال من فصل فى وفاة السلطان وكيف كانت حاله بعده : « وبقيت تلك الايام لا أفرق بين الدجى والضجى ولا أجد قلبى من سقم الهم وسكره صحح ولا صحا وحالت حالى وزال إدلالى وزاد بلبائى وبطل حقى واتسع خرقى وتنازل جاهى وتنازق أشباهى وأعضلت أدواء الدواهى وبقيت المعارف متنكرة والمطالع مكفرة والعيون شاخصة والظلال قالصة والأيدى يابسة والوجوه عابسة وطادت أبدكار خواطرى عانسة ونجوم قرأئى وشواردها الآنسة خالسة كانسة وبقي باب كل مرتجى مرتجياً ومنهيج كل معروف منهجاً وظمن الغنى عنى واختلف فى حسن الأخلاف بنى ظفى حتى تولى الملك الافضل بدمشق مقام أبية وقام بالأمر بعزم تأنيه وحزم تأنيه وعز تأنيه فعرف افتقاره الى معرفتى وفقرى والى عطل الملك ومحله من غزارة حلب درى ونضارة حلى درى فكتبت له وحليت من الملك عطله ووشيت الكتب ووشعتها وجلبت الرتب ووشعتها وهزرت اليراعة وأغرزت اليراعة وهجرت الجماعة ولزمت القناعة . اه »

هذا هو الاعجاب بالنفس بل اعجاب الفرس تراه ماثلاً من أول كتابه الى

آخره فقد قال في مقدمته : « وأودعته من فوائد الكلام والفرائد الفذ والتؤام
در السحاب ودر السحاب وسميته الفتح القدسي تنبيهاً على جلالته قدره وتنويراً
بدلالة نخره وعرضته على القاضي الأجل الفاضل وهو الذي في سوق فضله تعرض
بضائع الفضائل فقال لي سمع (الفتح القسي في الفتح القدسي) فقد فتح الله عليك
فيه بفصاحة قس وبلاغته وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجز ذوو القدرة في
البيان عن صياغته اه . »

وأظن أن القاضي الفاضل على جلالته شأنه ما كان يستحق هذا الاعظام من
العماد لو لم يكن نوه له بكتابه على أن للعماد من المزايا التي يفاخر بها ما قد يغفر له
هذا التبجح ولكن كثيرين يفاخرون وليس عندهم شيء من المزايا . نشأ العماد
بأصهبان وقدم بغداد في حداثة وتفقه بالمدرسة النظامية وأقام بها مدة (ابن
خلكان) ولما تخرج ومهر تعلق بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ببغداد فولاه
النظر بالبصرة ثم بواسط فلما توفي أقام العماد مدة في عيش منكد وجفن مسهد ثم
انتقل الى دمشق (٥٦٢ هـ) وسلطانها يومئذ الملك العادل نور الدين وعرفه والد
صلاح الدين فأحسن اليه وأكرمه وميزه من الاعيان والامائل وعرفه صلاح
الدين ومدحه بقصيدة ثم أن القاضي كمال الدين الشهرزوري نوه بذكره عند
السلطان نور الدين وعدد عليه فضائله وأهله لكتابة الانشاء قال العماد فبقيت
متحيراً في الدخول فيما ليس من شأني ولا وظيفتي ولا تقدمت لي به دراية ولقد
كانت مواد هذه الصناعة عتيدة عنده لكنه لم يكن قد مارسها فجن عنها في
الابتداء فلما باشرها هانت عليه وأجاد فيها وأتى فيها بالفرائب وكان ينشئ الرسائل
باللغة العجمية أيضاً وحصل بينه وبين صلاح الدين في تلك المدة مودة أكيدة
وامتزاج تام ولما أخذ صلاح الدين دمشق حضر بين يديه وأنشده قصيدة أطال
نفسه فيها ثم لزم الباب ينزل لنزول السلطان ويرحل لرحيله فاستمر على عطلته
مديدة وهو يغشى مجالس السلطان وينشده في كل وقت مدائح ويعرض بصحبته
القديمة ولم يزل على ذلك حتى نظمه في سلك جماعته واستكتبه واعتمد عليه وقرب
منه فصار من جملة الصدور المعدودين والامائل المشهورين يضاهي الوزراء
ويجري في مضارهم وكان القاضي الفاضل في أكثر أوقاته ينقطع عن خدمة السلطان

ويتوفر من مصالح الديار المصرية والعماد ملازم للباب بالشام وغيره وهو صاحب السر المكتوم وصنف التصانيف الفائقة من ذلك كتاب خريدة القصر وجريدة العصر جعله ذيبلا على زينة دمية الدهر تأليف أبي المعالي سعد بن علي الوراق الخطيري والخطيري جعل كتابه ذيبلا على دمية القصر وعصرة أهل العصر للباخرزي والباخرزي جعل كتابه ذيبلا على يتيمة الدهر للثعالبي والثعالبي جعل كتابه ذيبلا على كتاب البارع لهرورث بن علي المنجم

وقد ذكر العماد في خريدته الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة الى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وجمع شعراء العراق والعجم والشام والجزيرة ومصر والمغرب ولم يترك أحداً الا النادر الخامل وأحسن في هذا الكتاب وهو في عشر مجلدات وصنف كتاب البرق الشامي في سبع مجلدات وهو مجموع تاريخ وبدأ فيه بذكر نفسه وصورة انتقاله من العراق الى الشام وما جرى له في خدمة السلطان نور الدين محمود وكيفية تنقله بخدمة السلطان صلاح الدين وذكر شيئاً من الفتوحات بالشام وهو من الكتب الممتعة وأما سماه البرق الشامي لانه شبه أوقاته في تلك الايام بالبرق الخاطف لطيبها وسرعة انقضائها وصنف كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي في مجلدين يتضمن كيفية فتح البيت المقدس وصنف كتاب السيل على الزيل جعله ذيبلا على الذيل لابن السمعي وهو ذيل على كتاب خريدة القصر وصنف كتاب نصره الفترة وعصرة القطرة في أخبار الدولة السلجوقية (مطبوع) وله ديوان رسائل وديوان شعر في أربع مجلدات ونفسه في قصائده طويل وله ديوان صغير جميعه دوبيت وكان بينه وبين القاضي الفاضل مكاتبات ومحاورات لطاف .

ولم يزل العماد الكاتب على مكانته ورفعة منزلته الى أن توفي السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى فاختات أحواله وتمطلت أوصاله ولم يجد في وجهه باباً مفتوحاً فلزم بيته واقبل على الاشتغال بالتصانيف وكانت ولادته يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وخمسمائة باصبهان وتوفي يوم الاثنين مستهل شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة بدمشق ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر .

أما ابن شداد مؤلف السيرة الصلاحية فقد ولد بالموصل سنة ٥٣٩ و حفظ بها القرآن الكريم في صغره وتخرج بضياء الدين القرطبي و بـابن الشيرجى والطوسى الخطيب وغيرهم قرأ عليهم القراآت والتفسير والحديث والفقه والخلاف والادب واللغة وأعاد بالمدرسة النظامية وحج في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وزار بيت المقدس والخليل ثم دخل دمشق والسلطان صلاح الدين محاصر قلعة كوكب فذكر انه سمع بوصوله فاستدعاه اليه فظن انه يسأله عن كيفية قتل الامير شمس الدين وكان أمير الحاج في تلك السنة من جهة صلاح الدين وقتل على جبل عرفات فلما دخل عليه ذكر انه قابله بالاكرام التام وما زاد على السؤال عن الطريق ومن كان فيه من مشايخ العلم والعمل وسأله عن جزء من الحديث ليسمعه عليه فاخرج له جزءاً جمع فيه اذكار البخارى وانه قرأه عليه بنفسه فلما خرج من عنده تبعه عماد الدين الكاتب الاصبهاني وقال له : السلطان يقول لك اذا عدت من الزيارة وعزمت على العود فمر فانا بذلك فلنا اليك مهم فأجابه بالسمع والطاعة فلما عاد عرفه بوصوله فاستدعاه وجمع له في تلك المدة كتاباً يشتمل على فضائل الجهاد وما أعده الله سبحانه وتعالى للمجاهدين يحتوى على مقدار ثلاثين كراسة فخرج اليه واجتمع به ببقعة حصن الاكراد وقدم له الكتاب الذى جمعه وقال انه كان عزم على الانقطاع في مشهد بظاهر الموصل اذا وصل اليها ثم انه اتصل بخدمة صلاح الدين في مستهل جمادى الاولى سنة أربع وثمانين وخمسمائة ثم ولاء قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف ولما توفي صلاح الدين كان حاضراً وتوجه الى حلب لجمع كلمة الاخوة اولاد صلاح الدين وتحليف بعضهم لبعض وكتب الملك الظاهر غياث الدين بن صلاح الدين صاحب حاب الى أخيه الملك الافضل نور الدين على بن صلاح الدين صاحب دمشق يطلبه منه فأجابه الى ذلك فأرسله الملك الظاهر الى مصر لاستخلاف أخيه الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين وعرض عليه الظاهر الحكم بحلب فلم يوافق على ذلك ثم ولى قضاءها ووقوفها وكانت حلب في ذلك الزمان قليلة المدارس وليس بها من العلماء الا نفر يسير فاعتنى ابن شداد بترتيب أمورها وجمع الفقهاء بها وعمرت في أيامه المدارس الكثيرة وكان الملك الظاهر قد قرر

له اقطاعاً جيداً يحصل منه جملة مستكثرة ولم يكن له خرج كثير فانه لم يولد له ولا كان له أقارب فتوفر له شيء كثير فعمر مدرسة للشافعية وداراً للحديث في حلب ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدتها الفقهاء من البلاد وحصل بها الاشتغال والاستفادة وكثر الجمع بها .

وكان بيد القاضي أبي المحاسن بن شهاد حل الامور وعقدتها ولم يكن لاحد معه في الدولة كلام وكان سلطانها الملك العزيز أبو المظفر بن الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين وهو صغير السن تحت حجر الطواشي شهاب الدين أبي سعيد طغرل وهو أتابكه وتولي أمور الدولة بإشارة القاضي أبي المحاسن لا يخرج عنهما شيء من الامور وكان للفقهاء في أيامه حرمة تامة ورعاية كبيرة خصوصاً جماعة مدرسته فانهم كانوا يحضرون مجالس السلطان وينفطرون في شهر رمضان على سباطه .

قال صاحب وفيات الاعيان بعد ايراد ما تقدم تحصيله وكان القاضي أبو المحاسن المذكور سلك طريق البغادة في ترتيبهم واوضاعهم حتى انه كان يلبس ملبوسهم والرؤساء يترددون اليه وكانوا ينزلون عن دوابهم على قدر أقدارهم لكل واحد منهم مكان معين لا يتعداه ثم انه تجوز الى الديار المصرية لأحضار ابنة الملك الكامل بن الملك العادل للملك العزيز صاحب حلب وكان قد عقد له عليها فسار في أول سنة تسع وعشرين وستمائة وعاد وقد جاء بها ولما وصل كان قد استقل الملك العزيز بنفسه ورفعوا عنه الحجر ونزل الاتابك طغرل من القلعة الى داره تحت القلعة واستولى على الملك العزيز جماعة من الشباب الذين كانوا يعاشره ويجالسونه فاشتغل بهم ولم ير القاضي أبو المحاسن وجهاً يرتضيه فلزم داره الى حين وفاته وهو باق على الحكم واقطاعه جار عليه غاية ما في الباب انه لم يبق له حديث في الدولة وكانوا يراجعونه في الامر فكان يفتح بابه لاصماع الحديث كل يوم بين الصلوتين واستمر على ذلك حتى توفي سنة اثنتين وثلاثين وستمائة بحلب وصنف كتابه ملجأ الأحكام عند التباس الأحكام يتعلق بالاقضية في مجلدين وكتاب دلائل الأحكام تكلم فيه على الاحاديث المستنبط منها الاحكام في مجلدين وكتاب

الموجز الباهر في الفقه وكتاب سيرة صلاح الدين وغير ذلك وجعل داره خانقاه للصوفية .

هذان هما الرجلان اللذان تعلقا بخدمة صلاح الدين وحرص عليهما مع إدلالهما عليه فنفتت بضاعتها في سوقه والدولة سوق يحمل اليها ما يروح فيها . ومع ما كانا فيه من السعة لم تلهيها الدنيا عن التأليف والتدريس وإحياء معالم العلم والأدب فأثرا بفضائها في حياتها . وبعدها كتب العماد السيرة الصلاحية ممزوجة بالأدب ومع هذا لم يفته الغرض من التاريخ حتى انه قال فيما تم على الاسطول من فصل « فانشقت مرائر الفرنج وأزاحت سفنها عن النهج وقرانصت بزاة البيزانية وتقلصت جباه الجنوية وكرمت أدواء الداوية وكثرت أسواء الاسبتارية وزادت آلام الالمانية وعادت أسقام الافرنسية »

مما دل على انه كان يعلم أجناس المحاربين ومما ذكره أيضاً في ذكر ما تجدد لملك الانكتير (انكلترا) من المراسلة والرغبة في المواصلة قال : وصلت رسل ملك الانكتير الى العادل بالمصالحة على المصافاة والمواتاة في الموافاة وموالاتة الاستمرار على الموالاتة والاخذ بالمهادات والترك للمعادات والمظاهرة بالمصاهرة وترددت الرسل أياماً وقصدت التثاماً وكادت تحدث انتظاماً واستقر تزوج الملك العادل بأخت ملك الانكتير وأن يعول عليهما من الجانبين في التدبير على أن يحكم العادل في البلاد ويجري فيها الامر على السداد وتكون المرأة في القدس مقيمة مع زوجها وشمسها من قبوله في أوجها ويرضى العادل مقدمى الفرنج والداوية والاستتبار ببعض القرى ولا يمكنهم من الحصون التي في الذرا ولا يقيم معها في القدس الا قسيسون ورهبان وطهم منا أمان واحسان واستدعاني العادل والقاضي بهاء الدين بن شداد وجماعة من الامراء من أهل الرأي والساداد وهم علم الدين سليمان بن جندر وسابق الدين عثمان وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة وقال لنا تمضون الى السلطان وتخبرونه عن هذا الشأن وتسالونه أن يحكمنى في هذه البلاد فلما جئنا الى السلطان عرف الصواب وما أخرج الجواب وشهدنا عليه بالرضا وعاد الرسول الى ملك الانكتير بفصل أمر الوصلة وأراحة الجملة وأراحة العلة واعتقدنا أن هذا أمر قد تم الى أن قال وبلغ الخبر الى مقدميهم ورؤسهم

فقصوه على قسوسهم وعسروا على عروسهم فخبوها بالعذل والمدع ثم رضيت على شرط الموافقة في الدين فأنف العادل الى آخر ما ذكر .

بيد ان الصراحة في كلام ابن شداد أكثر لانه لم يتقيد بالسجع والترصيع وأنواع البديع المريع فقال في ذكر ملك الانكتار : وهذا ملك الانكتار شديد البأس بينهم عظيم الشجاعة قوى الهمة له وقعات عظيمة وله جسارة على الحرب وهو دون الفرنسيس عندهم في الملك والمنزلة لكنه أكثر مالا منه وأشهر في الحرب والشجاعة وكان من خبره انه وصل الى جزيرة قبرص ولم ير أن يتجاوزها الا وان تكون له وفي حكمه فنازلها وقتلها فخرج اليه صاحبها وجمع له خلقاً كثيراً وقتلهم قتالاً شديداً..... ولما كان يوم السبت ثالث عشر الشهر قدم ملك الانكتار بعد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص والاستيلاء عليها وكان لقدمه روعة عظيمة ووصل في خمس وعشرين شانية مملوءة بالرجال والسلاح والعدد واظهر الافرنج سروراً عظيماً حتى انهم أوقدوا تلك الليلة نيراناً عظيمة في خيامهم ولقد كانت النيران مهولة عظيمة تدل على عدة عظيمة كبيرة وكان ملوكهم يتواعدوننا به فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنهم انهم موقنون فيما يريدون أن يفعلوا من مضايقة البلد (عكا) حتى قدمه فانه ذو رأى في الحرب مجرب وأثر قدمه في قلوب المسلمين خشية ورهبة....

وقال من فصل : كنت ذكرت وصول رسول منهم يلتمسون من جانب الانكتار أن يجتمع بالسلطان وذكرت عذر السلطان عن ذلك وانقطع الرسول وعاد معاوداً في المعنى وكان حديثه مع الملك العادل ثم هو يلقيه الى السلطان واستقر انه رأى أن يأذن له في الخروج ويكون الاجتماع في المرج والعساكر محيطة بهما ومعهما ترجان فاما أذن في ذلك تأخر الرسول أياماً عنده بسبب مرضه واستفاض ان ملوكهم اجتمعوا عليه وانكروا عليه ذلك وقالوا هذه مخاطرة بدين النصرانية ثم بعد ذلك وصل رسول يقول لا تظن تأخرى بسبب ما قيل فان زمام قيادى مفوض الى وأنا أحكم ولا يحكم على غير انى في هذه الايام اعترى مزاجى التيات منعى عن الحركة فهذا كان العذر في التأخير لا غير وعادة الملوك اذا تقاربت منازلهم أن يتهادوا وعندي ما يصلح للسلطان وأنا استخرج الاذن في

ايصاله اليه فقال له الملك العادل قد أذن في ذلك بشرط قبول المجازاة على الهدية فرضى الرسول بذلك وقال الهدية شيء من الجوارح قد جلب من وراء البحر وقد ضعف فيحسن أن يحمل الينا طير ودجاجة حتى نطعمها لتقوى ونحملها فداعبه الملك العادل وكان فقيهاً فيما يحدثهم به فقال الملك قد احتاج الى فراريح ودجاج ويريد أن يأخذها منا بهذه الحجة ثم انفصل حديث الرسالة في الآخر على أن قال الرسول ما الذي أردتم منا ان كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع فقيل له عن ذلك نحن ما طلبناكم أنتم طلبتمونا فان كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع وانقطع حديث الرسالة الى سادس جمادى الاخرى فخرج رسول الانكثار الى السلطان ومعه انسان مصرى قد أسروه من مدة طويلة وهو مسلم قد أهدها الى السلطان فقبله وأحسن اليه وأعادته مشرفاً مكرماً الى صاحبه وكان غرضه بتكرار الرسائل تعرف قوة النفس وضعفها وكان غرضنا بقبول الرسائل تعرف ما عنده من ذلك أيضاً .

وقال في مشورة ضربها في التخيير بين الصلحين بين الانكثار والمركيس :
واصل التعاقد ان الملك (الانكثار) قد بذل أخته للملك العادل بطريق التزويج وان تكون البلاد الساحلية الاسلامية والافرنجية لها فاما الافرنجية فلها من جانب أخيها والاسلامية له من جانب السلطان وكان آخر الرسائل من الملك في المعنى ان قال ان معاشر دين النصرانية قد أنكروا على وضع أختي تحت مسلم بدون مشاورة البابا وهو كبير دين النصرانية ومقدمه وها أنا أسير اليه رسولا يعود في ستة أشهر فان أذن فيها ونعمت والا زوجتك ابنة أخي وما احتاج الى اذنه في ذلك هذا كله وسوق الحرب قائم والقتال عليهم ضربة لازم .

وقال في عود الرسول من قبل ملك الانكثار : وادى الرسالة وهي ان الملك يسأل ويخضع لك أن تترك له هذه الاماكن الثلاثة حامرة وأى قدر لها في ملكك وعظمتك وما من سبب لاصراره عليها الا ان الافرنج لم يسمحوا بها وقد ترك القدس بالكلية فلا يطلب أن يكون فيه رهبان ولا قسوس الا في القمامة وحدها فانت تترك له هذه البلاد ويكون الصلح عاماً فيكون لهم كل ما في أيديهم من الدارون الى انطاكية ولكم ما في أيديكم وينتظم الحال ويروج وان لم

ينتظم الصلح فالأفرنج لا يمكنونه من الرواح ولا يمكن مخالفتهم فانظر الى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين تارة والخشونة أخرى وكان مضطراً الى الرواح وهذا عمله مع اضطراره والله الولي في أن يبقى المسلمين شره فما بلونا أعظم حيلة وأشد اقداماً منه .

سيرة صلاح الدين

أشار الينا أحد الاصدقاء أن نزيد القراء من سيرة أبي المظفر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أحد أفراد الملة الاسلامية وأكبر أبطال القرون الغابرة من كان يعلم أعداءه كيف تكون الرجولية كما كان قال امبراطور الالمان الخالي وان نتوسع في وقائمه ما أمكن لان سيرته الشريفة جديرة بأن يتدارسها الملوك والسوقة ويهتدى بهديها ابن القرن الحاضر والقرون الآتية فهي مثال الحكمة كلما كررت حلت ومهما أطال الناظر بصره فيها زاد بصيرة وماذا عسانا نقول فيمن جمع الفضائل النفسية ورزق من الصبر والثبات وحب الموت حباً في إحياء الامة وخادنه من أسباب التوفيق ما لم يكتب لاحد نخدم الاسلام والمسلمين بمقله وجهاده خدمة الخليفة الثاني ونفعهم بسيرته كما نفع المأمون العباسي وكان في زهده وشدته على بن أبي طالب وعمر بن عبد العزيز

اجتمعت لصلاح الدين أرقى صفات تلزم الملوك والسلاطين واسمى أخلاق الزاهدين العاملين والكرماء المحسنين وترى تربية رشيدة لا يكاد ينشأ عليها ابن أرقى البيوت المملوكة لعهدنا في بلاد الغرب مع ما لهم من المدارس الجامعة والجامع والجمعيات وأسباب تهذيب النفس وتربية الملكات وانارة العقول

فلاحت على وجهه مخايل السعادة وأخذت النجابة منذ نشأته تقدمه من حالة الى حالة كما قالوا فنشأ في كنف أبيه في قلعة تكريت وكان أبوه وعمه بها عمالاً لحاكم تلك الديار وكان أهله من دوين بلدة في آخر عمل اذربيجان من جهة ايران

وبلاد الكرج وهم أكراد روادية وهي قبيلة كبيرة من قبائل الأكراد وانتقلوا من هناك الى تكريت وفيها ولد صلاح الدين
قال ابن خلدان اخبرني بعض أهل بيتهم وقد سأله هل تعرف متى خرجوا من تكريت فقال : سمعت جماعة من أهلنا يقولون انهم خرجوا منها في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين فتشاءوا به وتطيروا منه فقال بعضهم : لعل فيه الخير وما تملكون فكان كما قال

قلنا تشاءوا بولادة صلاح الدين وذلك لانه صادف انه اخرج والده من قلعة تكريت باصر صاحبها بهروز ليلة ولادته . وذكر في الروضتين ان قد اجتمع مرة السلطان صلاح الدين ووالده الامير نجم الدين في دار الوزارة بمصر وقد قعدا على طراحة واحدة والمجلس خاص بارباب الدولتين يوم اراد نور الدين محمود ابن زنكي أن تقطع خطبة المصريين وتقام دعوة بني العباس وعند الناس من الفرح والسرور ما قد أذهل العقول فبينما الناس كذلك اذ تقدم كاتب نصراني كان في خدمة الامير نجم الدين فقبل الارض بين يدي السلطان الملك الناصر صلاح الدين ووالده نجم الدين والتفت الى نجم الدين وقال له : يا مولاي هذا تأويل مقالتي لك بالامس حين ولد هذا السلطان فضحك نجم الدين وقال : صدقت والله ثم أخذ في حمد الله وشكره والثناء عليه والتفت الى الجماعة الذين حوله والقضاة والامراء وقال : لكلام هذا النصراني حكاية عجيبة وذلك اني ليلة رزقت هذا الولد يعني السلطان الملك الناصر أمرني صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التي كانت من أخي شيركوه رحمه الله وقتله النصراني وكنت قد الفت القلعة وصارت لي كالوطن فثقل على الخروج منها والتحول عنها الي غيرها واغتممت لذلك وفي ذلك الوقت جاءني البشير بولادته فتشاءمت به وتطيرت لما جرى على ولم افرح به ولم استبشر وخرجنا من القلعة وأنا على طيرتي به لا اكاد اذكره ولا اسميه وكان هذا النصراني معي كاتباً فلما رأى ما نزل بي من كراهية الطفل والتشاؤم به استدعى مني أن آذن له في الكلام فأذنت له فقال لي : يا مولاي قد رأيت ما قد حدث عندك من الطيرة بهذا الصبي وأي شيء له من الذنب وما استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر ولا يغني شيئاً وهذا الذي جرى عليك قضاء من

الله سبحانه وقدر ثم ما يدريك ان هذا الطفل يكون ملكا عظيم الصيت جليل المقدر فعظمتى كلامه عليه وها قد اوقفنى على ما كان قاله فتعجب الجماعة من هذا الاتفاق وحمد السلطان ووالده الله سبحانه وشكراه .

ولما ملك نور الدين محمود بن زنكى دمشق لازم نجم الدين أيوب خدمته وكذلك ولده صلاح الدين . ونور الدين هذا تركى الاصل وهو صاحب الفضل الاول فى تأسيس ملك الشام ومصر بحيث قوى على رد غارات الصليبيين ودفعهم عن الارض المقدسة . فصلاح الدين يوسف ليس اذاً من أصل وضيع بل من أصل رفيع جداً تعلم القدر الذى كان يتعلمه أبناء الكبراء ونشأ نشأة دينية راقية وأخذ حسن الخلق والعدل والشجاعة والكرم عن أبيه نجم الدين أيوب ابن شاذى وكان عدلاً مرضياً كثير الصلاة والصلات غزير الصدقات والخيرات يجب العلماء ربى فى الموصل ونشأ شجاعاً باسلاً وخدم السلطان محمد بن ملكشاه فرأى منه أمانة وعقلاً وسداداً وشهامة فولاه قلعة تكريت فقام فى ولايتها أحسن قيام وضبطها اكرم ضبط وأجلى من أرضها المفسدين وقطاع الطريق وأهل العمى حتى عمرت أرضها وحسن حال أهلها وأمنت سبلها ثم أضيفت اليه ولايتها وكان نجم الدين عظيماً فى أنفس الناس بالدين والخير وحسن السياسة وكان لا يمر أحد من أهل العلم والدين به الا حمل اليه المال والضيافة الجليلة وكان لا يسمع عن أحد من أهل الدين فى مدينة الا انفذ اليه ما يستعين به على صلاح حاله

وكان أسد الدين شيركوه أخو نجم الدين أيوب فى قلعة تكريت مع أخيه وكان شجاعاً باسلاً مثل أخيه فاتفق ان أسد الدين نزل من القلعة يوماً لبعض شأنه ثم عاد اليها وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارص وكان رجلاً نصرانياً فاتفق فى ذلك اليوم ان النصرانى صادف أسد الدين صاعداً الى القلعة فعبث به بكلمة ممضة فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصرانى وصعد الى القلعة وكان مهيباً فلم يتجاسر أحد على معارضته فى أمر النصرانى فبلغ بهروز صاحب قلعة تكريت ما جرى وحضر عنده من خوفه من جرأة أسد الدين وانه ذو عشيرة كبيرة وان أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرعايا وانه ربما كان منها أمر تخشى طاقته ويصعب استدراكه فكتب إلى نجم الدين ينكر عليه ما جرى من أخيه ويأمره

بتسليم القلعة الى نائب سيره صحبة الكتاب فاجاب نجم الدين الى ذلك بالسمع والطاعة
وقعد هو وأخوه عند عماد الدين زنكى بالموصل فاكرمهما واقطعهما الاقطاعات
الحسنة ثم اتصلا بنور الدين محمود بن زنكى الى أن أرسل أسد الدين شيركوه
الى مصر ومعه ابن أخيه صلاح الدين . وبنور الدين تخرج صلاح الدين فقد
كان نور الدين يرى له ويؤثره ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف
والاجتهاد في أمور الجهاد وسافر صلاح الدين الى مصر وهو كاره للسفر فجعله
عمه أسد الدين شيركوه مقدم عسكره سنة تسع وخمسين وخمسمائة وكان صلاح الدين
في السابعة والعشرين من عمره فعرف أسد الدين حال مصر وكشف أحوالها
والدولة الفاطمية فيها مشرفة على الزوال وقد ضعفت جنديتها ودب النشل والهزم
في البيت العبيدى وصارت خلافتهم العوبة في يد كل ذي قوة

والسبب في دخول أسد الدين ومعه ابن أخيه صلاح الدين الى مصر ان
الوزير شاور هرب من مصر واستغاث في الشام بنور الدين من ضرغام بن عامر
لانه قهره وأخذ مكانه في الوزارة « ولما وصل أسد الدين شيركوه وشاور الى
الديار المصرية واستولوا عليها وقتلوا الضرغام وحصل لشاور مقصوده وعاد الى
منصبه وتمهدت قواعده واستمرت أموره غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد
بالفرنج عليه وحصلوه في بلبيس وكان أسد الدين قد شاهد البلاد وعرف أحوالها
وانها مملكة بغير رجال تمشي الامور فيها بمجرد الايهاام والمحال « طمع في الاستيلاء
عليها فبلغ شاوراً أن نور الدين قد زين له الاستيلاء على مصر وان أسد الدين
لا بد له من قصدها ثانية فكاتب الافرنج « وقرر معهم أنهم يجيئون الى البلاد
ويمكنهم منها تمكيناً كلياً ليعينوه على استئصال أعدائه فبلغ نور الدين وأسد الدين
مكاتبة شاور للفرنج وما تقرّر بينهم فخافا على الديار المصرية أن يملكوها ويملكوا
بطريقها جميع البلاد فتجهز أسد الدين وأنفذ نور الدين معه المساكر وصلاح الدين
في خدمة عمه أسد الدين شيركوه وكان توجههم من الشام في سنة ٥٦٢ »

استولى أسد الدين على أزمة الوزارة وقتل شاورا الوزير قبله بأمر الخليفة
الفاطمي جرياً على عادة أجداده في الوزراء وذلك في ربيع الاول سنة ٥٦٤ كان
صلاح الدين « يباشر الامور مقررأ لها لمكان كفايته ودرايته وحسن رأيه

وسياسته « ومات أسد الدين بعد شهرين وخمسة أيام من تولية الوزارة للعاضد الفاطمي فتولأها صلاح الدين بعده » وتمهدت القواعد ومشى الحال على أحسن الاوضاع وبذل الاموال وملك قلوب الرجال وهانت عنده الدنيا فلما كرها وشكر نعمة الله تعالى عليه فتاب عن الحجر وأعرض عن أسباب الالهو وتقمص بقميص الجد والاجتهاد « و من حين استتب له الامر مازال يشن الغارات على الفرنج الى الكرك والشوبك وغيرهما من البلاد وغشي الناس من سحائب الافضال والانعام ما لم يؤرخ من تلك الايام وهذا كله وهو وزير متابع القوم لكنه يقول بمذهب أهل السنة مارس في البلاد أهل الفقه والعلم والتصوف والدين « وهو يكرم كل وافد ولا يخب أحداً قصده .

بهذا الكرم والعقل دانت مصر لصلاح الدين وأصبح فيها الحاكم المتحكم واصطناع الفضلاء وتقريب العقلاء والافضال على العلماء والشعراء من أكد الطرق في بلوغ المقصود وتهيئة أسباب الملك

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الانسان احسان ولما ثبتت قدم صلاح الدين في مصر وأزال المخالفين كما قال ابن الاثير وضعف أمر العاضد ولم يبق من المساكر المصرية أحد كتب اليه الملك العادل نور الدين محمود بأمره بقطع الخطبة العاضدية واقامة الخطبة العباسية فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة الى ذلك لميامهم الى دولة المصريين فلم يصغ نور الدين الى قوله وأرسل اليه يلزمه بذلك الزاماً لا فسحة له فيه واتفق أن العاضد مرض وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة فاستشار أمراءه في كيفية الابتداء بالخطبة العباسية فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ومنهم من خاف ذلك إلا انه لم يمكنه الا امتثال أمر نور الدين فلما كان أول جمعة من المحرم (٥٦٧) خطب للمستضى بأمر الله تعالى العباسي فلم ينكر أحد ذلك فلما كانت الجمعة الثالثة أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضى بأمر الله ففعلوا ذلك ولم ينتطح فيها عنزان وكتب بذلك الى سائر الديار المصرية .

وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أهله وأصحابه بانقطاع الخطبة باسمه

وقالوا إن سلم فهو يعلم وان توفي فلا ينبغي أن ننقص عليه هذه الايام التي بقيت من أجله فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره وجميع ما كان فيه وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش وهو خصى يحفظه لحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين ونقل أهل العاضد الى مكان منفرد ووكّل بحفظهم وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في أيوان بالقصر وجعل عندهم من يحفظهم وأخرج من كان فيه من العبيد والأماء فاعتق البعض ورهب البعض وباع البعض وأخلى القصر من أهله وسكانه . وكان ابتداء الدولة العبّيدية أو الفاطمية بأفريقية والمنرب في ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين ومقامهم بمصر مائتي سنة وثمانين سنين وملك منهم أربعة عشر ملكاً آخرهم العاضد وأولهم المهدي

أزال صلاح الدين دولة العبّيديين على أهون سبب لأنهم لم تعد صالحة للبقاء وكفى أن أمراءها أخذوا يرأسون الأفرنج لتسلم لهم مناصبهم كما فعل جماعة عمارة الجنى وأخذوا يرأسون الفرنج في صقلية وساحل الشام ليقلبوا الحكومة الصلاحية ويميدوا الدولة العبّيدية فشعر بهم صلاح الدين وصلبهم وكما فعل غير واحد من ملوك الطوائف في الأندلس فأنشأوا يهتمون بغيرانهم وأعدائهم ويستعينون بهم على قتال ذويهم وأبناء ملتهم فكان ذلك من أهم الامور في طمع الاسبانيين ببلاد الأندلس واسترجاعها بعد أن حكمها العرب قروناً . عن علي ابن عيسى بن الجراح قال : سألت أولاد بنى أمية ما سبب زوال دولتكم قال أربع خصال أولها أن وزراءنا كتموا عنا ما يجب اظهاره لنا والثانية أن جباة خراجنا ظلموا الناس فارتحلوا عن أوطانهم فخربت بيوت أموالنا والثالثة انقطعت الارزاق عن الجنود فتركوا طاعتنا والرابعة أيس الناس من أنصافنا فاستراحوا الى غيرنا فهذا كان سبب زوال دولتنا . قلنا وهو سبب ذهاب أكثر الدول وهذه الخصال كانت ولاشك موجودة في الفاطمية .

قال صاحب الكامل : ولما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره اختار منه ما أراد ووهب أهله ما أراد وباع منه كثيراً وكان فيه من الجواهر والاعلاق النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك قد جمع على طول السنين وممر

الدهور فمنه القضيب الزمرد طوله نحو قصبة ونصف والحبل الباقوت وغيرها
ومن السكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد
وهكذا عادت الى مصر الخطبة والسكة باسم الخليفة العباسي بعد أن انقطعت
دهراً طويلاً فأرسل المستضيء بأمر الله خلعة الى نور الدين في الشام وأخرى أقل
من خلعته الى صلاح الدين في مصر

ثم حصلت وحشة بين نور الدين وصلاح الدين وذلك أن الاول طلب الى
الثاني أن يجمع العساكر المصرية ويأتي الى الكرك ليجمع هو العساكر الشامية
ويأتيها ليخلصوها من الافرنج فبعد أن صدع بالامر أرسل اليه كتاباً يعتذر
فيه عن الوصول باختلال الديار المصرية لأمر بلغته عن بعض شيعة العلويين
وانهم عازمون على الوثوب بها وأنه يخاف عليها مع البعد عنها أن يقوم أهلها على
من تخلف بها فلم يقبل نور الدين هذا الاعتذار منه وتغير عليه وكان سبب تقاعد
صلاح الدين أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين فاذالم يمثثل
أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده وعزم على الدخول الى مصر واخراج
صلاح الدين منها فبلغ الخبر الى صلاح الدين فجمع أهله ومنهم والده نجم الدين
وخاله شهاب الدين الحازمي ومعه سائر الامراء وأعلمهم ما بلغه من عزم نور
الدين على قصده وأخذ مصر منه واستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء فقام تقى
الدين عمر ابن أخى صلاح الدين وقال : اذا جاء قاتلنا ومنعنا عن البلاد ووافقه
غيره من أهله فشتهم نجم الدين أيوب وانكر ذلك واستعظمه وكان ذا رأى
وفكر وعقل وقال لتقى الدين : أقعد وسبه وقال لصلاح الدين : أنا أبوك وهذا
شهاب الدين خالك أتظن أن في هؤلاء كلمهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا فقال
لا فقال : والله لو رأيتك أنا وخالك شهاب الدين نور الدين لم يمكننا الا أن
نترجل له وتقبل الارض بين يديه ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا
كننا نحن هكذا فكيف يكون غيرنا وكل من تراه من الامراء والعساكر لو رأى
نور الدين وحده لم يتجاسر من الثبات على سرجه ولا وسعه إلا النزول وتقبيل
الارض بين يديه وهذه البلاد له وقد أقامك فيها وان أراد عزلك سمعنا وأطعنا
والرأى أن تسكتب اليه كتاباً وتقول : بلغني انك تريد الحركة لاجل البلاد فأرى

حاجة الى هذا يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتى منديلاً ويأخذني اليك فما هبنا من يمتنع عليك وقال لجماعته كلهم : قوموا عنا فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد فتفرقوا على هذا وكتب أ كثرهم الى نور الدين بالخبر . ولما خلا أيوب بابنه صلاح الدين قال له : أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على شرك وما في نفسك فاذا سمع نور الدين انك عازم على منعه عن البلاد جعلك أهم الامور وأولاها بالقصد ولو قصدك لم تر معك أحداً من هذا العسكر وكانوا أسلموك اليه وأما الآن بعد هذا المجلس سيكتبون اليه ويعرفونه قولي وتكتب أنت اليه وترسل اليه في المعنى وتقول أي حاجة الى قصدي يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي فهو اذا سمع عدل عن قصدك واستعمل ما هو أهم عنده والايام تتدرج والله كل وقت في شأن . والله لو أراد نور الدين قسبة من قصب سكرنا لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل . ففعل صلاح الدين ما أشار به والده فلما رأى نور الدين الامر هكذا عدل عن قصده وكان الامر كما قال نجم الدين أيوب وتوفي نور الدين ولم يقصده وملك صلاح الدين البلاد قال ابن الاثير وهذا كان من أحسن الآراء وأجودها .

هذا هو التوفيق الذي حالف صلاح الدين دخل مصر كارهاً مع عمه فصار قائداً جندها ثم تولى وزارتها فلكبها وقلب دولة العبيديين وكل ذلك بأخذه بالحزم في أموره واستشارته العقلاء من أهله ورجاله وكان من طبعه أن لا يبت أمراً بدون مشورة هكذا كان منذ ابتداء شاباً الى أن استولى بعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ على الشام الى أن استخلص بيت المقدس من أيدي الافرنج وطردهم من أكثر مدن ساحل الشام يعمل بقول بشار :

اذا بلغ الرأي النصيحة فاستعن برأي لبيب أو نصيحة حازم
ولا تحسب الشورى عليك غضاضة فان الخوافي رافدات القوادم

وكان نور الدين قد خلف ولده الملك الصالح اسمعيل وكان بدمشق عند وفاة أبيه فسار الي حلب من دمشق فلما علم صلاح الدين ان الملك صالح صبي لا يستقل بالامر ولا ينهض بأعباء الملك واختلت الاحوال بالشام تجهز من مصر في جيش كثيف وترك بها من يحفظها وقصد دمشق مظهراً انه يتولى مصالح الملك الصالح

فدخلها بالتسليم سلخ سنة سبعين وخمسمائة وتسلم قلعتها ففرح الناس به وانفق مالا جزيلا وسار الى حلب فنازل حمص وأخذ مدينتها ثم استولى على تلك البلاد الى الفرات وما بعد الفرات وتوفي الملك الصالح بعد مدة قليلة فاخذ حلب ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل ثم عاد صلاح الدين سنة ٥٧٧ واستولى على حلب ودانت له البلاد وفتح بيت المقدس بعهد أن ملكه الافرنج نحو مائتي سنة ولم يفشل في واقعة من وقائعه مع الصليبيين على كثرة عددهم وعديدهم اللهم الا في عكا فاستعادوها منه بعد أن فتحها بواسطة ملك الانجليز اذ ذلك ريشاردس قلب الاسد .

ان عدل الملك الناصر صلاح الدين يوسف قدادهش الاوربيين في ذلك العهد فكانوا هم يعاهدون فينكثون أما هو هو فما عاهد ونكث قط وكثيراً ما كان بعض خاصته من متعصبة المشايخ الذين لا يعرفون سياسة الملك ولا حسن ادارة الفتوحات يريدونه على أن يعامل الصليبيين بمثلهم في الانتقام من أسراهم عنده كما فعل أولئك وقتلوا مرة مئآت من أسرى المسلمين فما كان جوابه الا الاعراض عن مقترحاتهم والعمل بسنة الدين والالطف حتى استهوى القلوب الشاردة وأحبه أعداؤه قبل أوليائه وهذا من أندر النوادر في الملوك وناهيك بعصره الذي كان عصر التمسب الديني في الغرب والشرق أيضاً فالصليبيون جاؤا هذه الديار مدفوعين بعوامل الدين واستنقاذ بيت المقدس من المسلمين وهؤلاء قاموا باسترجاع البلاد بهذا العامل القوي أيضاً

قال عبد المنعم الجلياني أحد شعراء الملك الناصر صلاح الدين من قصيدة يعجل فيها السبب الذي من أجله أحب الفرنج صلاح الدين :

وفيت لهم حتى أحبوك ساطياً	بهم ووفاء العهد قيد المخاصم
نحانوا نحابو افاتدوا فتلاوموا	فقالوا خذلنا بارتكاب الجرائم
وخص صلاح الدين بالنصر اذ أتى	بقلب سليم راحماً للمسلم
خطوا بارجاء اهلها كل صورة	لك اعتقدوها كاعتقاد الاقنم
يدين لها قس ويرقى بوضعها	ويكتبه يشفي به في التمام

ملك مصر والشام والجزيرة والعراق واليمن والملك لما يستتب له على ما يجب

فاستطاع بمقله واخلاصه لامته ووطنه أن يدفع غارات الاوربيين عن أرض الشام
ومصر بعد أن رسخت أقدامهم قرنين كاملين واستجاشوا لهم الانصار وحشروا
من جميع أمم أوربا العدد الكثير وبذلوا في ذلك من المال والرجال ما يقدر
بالملايين والربوات ان هذا من عجائب التاريخ . تقف كتائب من العرب والترك
والاكراد في موقف القتال مع الفرنسي والالماني والانكليزي والمجري
والايطالي والاسباني والنمساوي والسويسري وغيرهم من أمم الافرنج فيبن
الاولون الآخرين على قلة عددهم . ولكن الجيوش قد لا تؤتي من قلة أكثر
مما تؤتي من سوء السياسة وعمو القواد والاستهانة بالشورى . وما كان المدافع
كالمهاجم في وقت من الاوقات .

ومع هذا الملك الضخم الذي كان لصالح الدين كان يعيش عيش المتوسطين
وينفق بحيث تكاد تمده الى الاسراف فقد كانت قطعة الصلح بينه وبين الافرنج
في القدس مثلاً أن يؤدوا عن كل رجل عشرين ديناراً وعن كل امرأة خمسة دنانير
صورية وعن كل ذكر صغير أو أنثى ديناراً واحداً فن احضر قطيعته نجا بنفسه
والا أخذ أسيراً فأقام صالح الدين يجمع الاموال ويفرقها على الامراء والرجال
ويجوبها الفقهاء والعلماء والزهاد والوافدين عليه ولم يرحل عن القدس ومعه من
المال الذي جبي له شيء وكان يقارب مائتي الف دينار وعشرين ألف دينار . قال
في البرق سمعت الملك العادل (أخو صالح الدين) يوماً في أثناء حديثه في ناديه
وهو يجري ذكر افراط السلطان في أياديه يقول : اني توليت قطعة القدس
فأنفقت له ليلة سبعين ألف دينار فجاءني خازنه بكرة وقال : نريد اليوم ما نخرجه
في الانفاق فما عندنا مما كان بالامس شيء فنفقت له ثلاثين ألف دينار أخرى في
الحال . قالوا . وكان يرضى من الاعمال بما تحمل صفواً عفواً وكله يخرج في الجود
والجهاد

وكان يكتفى من اللباس بالكتان والقطن والصوف ومجلسه منزله عن الهزء
ومحافله حافلة باهل الفضل قال العباد وما سمعت له قط كلمة تسقط ولا لفظة فظة
تسخط يؤثر سماع الاحاديث ويكلم العلماء عنده في العلم الشرعي وكان لمدادومته
الكلام مع الفقهاء ومشاركته القضاة في القضاء أعلم منهم بالاحكام الشرعية

وكان من مجالسه لا يعلم أنه مجالس السلطان بل يعتقد انه مجالس أخ من الاخوان وكان حليماً مقبلاً للمعثرات متجاوزاً عن الهفوات تقياً نقياً وفيماً صفيماً يفضي ولا يفضب ما رد سائلاً ولا صد نائلاً ولا أخجل قائلاً ولا خيب آملاً .

أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء بحيث كان اذا جري الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً وإن لم يكن بعبارة الفقهاء وكان شديداً على الفلاسفة والمعطلة والدهرية وكان مواظباً على صلواته وصيامه عادلاً رحماً ناصراً للضعيف على القوي وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكين حتى يصل اليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سراً وحضراً على انه كان في جميع أوقاته قابلاً لما يعرض عليه من القصص كاشفاً لما ينهي اليه من المظالم

كان من عظماء الشجعان قوي النفس شديد البأس عظيم الثبات لا يهوله أمر وصل في ليلة واحدة من الافرنج نيف وسبعون مركباً الى عكا وهو لا يزداد إلا قوة نفس وكان يعطى دستوراً (أي يسرح عسكره) في أوائل الشتاء ويبقى في شردمة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة إذ كان عدد جيشهم لا يقل عن خمسمائة الى ستمائة ألف ومع هذا تراه صابراً هاجراً في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه قائماً من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تضربها الرياح يمنة ويسرة . وكان لا بد له من أن يطوف حول العدو كل يوم مرة أو مرتين اذا كان قريباً منهم واذا اشتد الحرب يطوف بين الصفيين ويخرق العساكر من الميمنة الى الميسرة يرتب الاطلاق ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها وكان يشارف العدو ويجاوره

انهزم المسلمون في يوم المصاف الاكبر بمرج عكا حتى القاب ورجاله ووقع الكؤوس والعلم وهو ثابت القدم في نفر يسير فأنحاز الى الجبل يجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ولم يزل كذلك حتى عكس المسلمون على العدو في ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ولم يزل مصابراً لهم وهم في العدة الوافرة الى أن ظهر له ضعف المساميين فصالح وهو مسؤول من

جانبيهم فان الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة والمسلمون لا يتوقعونها وكانت المصلحة في الصلح .

ولقد كان يركب للحرب وهو على غاية المرض كما فعل يوم عكا وقد اعترته دمامل ظهرت عليه من وسطه الى ركبته بحيث لا يستطيع الجلوس وكان مع ذلك يركب من بكرة النهار الى صلاة الظهر يطوف على الاطلاب ومن العصر الى صلاة المغرب وهو صابر على شدة الألم وقوة ضربات الدمامل وكان يعجب من ذلك فيقول اذا ركبت يزول عني ألمها حتى انزل .

ومع كل هذه الصفات التي نعددها منها ولا نعددها لكثرتها واجماع المؤرخين من العرب والافرنج عليها كان السلطان حسن العشرة لطيف الاخلاق طيب الفكاهة حافظاً لانساب العرب ووقرة أئمة عارفاً بسيرهم وأحوالهم حافظاً لانساب خيلهم عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث كان أصحابه يستفيدون في محاضرة منه ما لا يسمعون من غيره وكان يستحسن الاشعار الجيدة ويردها في مجالسه وكثيراً ما ينشد قولهم

وزارني طيف من أهوى على حذر من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا
فكدت أوقف من حولي به فرحاً وكاد يهتك ستر الحب بي شغفاً
ثم انتهت وآمالى تخيل لي نيل المنى فاستجالت غبطتي أسفاً

وكان يعجبه قول ابن المنجم في خضاب الشيب
وما خضب الناس البياض لقبحه وأقبح منه حين يظهر ناصله
ولكنه مات الشباب فسودت على الرسم من حزن عليه منازله
وكان يسأل الواحد منهم عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه وتقلبات
أحواله وكان طاهر المجلس لا يذكر بين يديه أحد الا بالخير وطاهر السمع فلا يحب
أن يسمع عن أحد الا بالخير وطاهر اللسان فما شوهد مولماً بشتم قط حسن العهد
والوفاء فما أحضر بين يديه يتيم الا وترحم على مخلقه وجبر قلبه وأعطاه خبز مخلقه
وسامه الى من يكفله ويعنى بتربيته وكان لا يرى شيخاً الا ويرق له ويعطيه
ويحسن اليه .

قال ابن شداد : ولقد رأيتُه وقد مثل بين يديه أسير أفرنجي قد أصحابه كرب بحيث انه ظهرت عليه أمارات الخوف والجزع فقال للترجمان : من أي شيء يخاف فأجرى الله على لسانه أن قال : كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه فبمدرؤتي له وحضورى بين يديه أيقنت انى ما أرى الا الخير فرق له ومن عليه وأطلقه . قال ولقد كنت راكباً في خدمته في بعض الايام قبالة الأفرنج وقد وصل بعض الزكية ومعه امرأة شديدة التخوف كثيرة البكاء متواترة اللدق على صدرها فقال الزكي . ان هذه خرجت من عند الأفرنج فسألت الحضور بين يديك وقد أتينا بها فأمر الترجمان أن يسألها قصتها فقالت اللصوص المسلمون دخلوا البارحة الى خيمتى وسرقوا ابنتى وبت البارحة استقيمت الى بكرة النهار فقال لى المملوك : السلطان هو أرحم ونحن نخرجك اليه تطلبين ابنتك منه فأخرجونى اليك وما أعرف ابنتى الا منك فرق لها ودمعت عينه وحركته مروءته وأمر من ذهب الى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه فما كان الا أن وقع نظرها عليها فخرت الى الارض تعفر وجهها فى التراب والناس يبكون على ما نالها وهى ترفع طرفها الى السماء ولا نعلم ما تقول فسلمت ابنتها اليها وحملت حتى أعيدت الى عسكرهم .

ولقد كان يسمع من المستغيثين والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر والقبول دلالة على حرية وسعة صدر وقد كان يوماً بعض خدمه يلعبون بسر موزة (بانتوفل) فى ناحية فوققت على رأسه فأدار وجهه كأنه لم يحدث شيء وتظاهر بانه لم ير شيئاً وكان الحافظ ابن عساكر يدخل قصره يقرأ الحديث فكانت جلبة الخدم ترتفع فتكرر ذلك حتى قال الحافظ يوماً : ما هذا ؟ كنا فى عهد نور الدين ندخل هذا المكان والناس كأن على رءوسهم الطير اشارة الى ان صلاح الدين يتساهل مع خدمه ملقيا حباهم على غاربهم .

لما فتح صلاح الدين القدس وغيرها من السواحل ولم يبق فى أيدي الصليبيين الا عكا وصور وغيرها من البلاد التى لا شأن لها ورأى ان المشيب انذره بقرب الاجل عقد العزم على الحج الى بيت الله الحرام فلما بلغ القاضى الفاضل كتب اليه

مشيراً بتبطليله : ان الفرنج لم يخرجوا بمد من الشام ولا سلوا عن القدس ولا يوثق بعدهم في الصلح فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم وافتراق عسكرنا وسفر سلاطيننا سفراً مقدرًا معلوماً مدة الغيبة فيه أن يسيروا ليلة فيصباحوا في القدس على غفلة فيدخلوا اليه بالعياذ بالله ويفرط مد يد الاسلام ويصير الحج كبيرة من الكبائر التي لا تختفر ومن المرات التي لا تقال الى أن يقول : يا مولانا مظالم الخلق كشفها أهم من كل ما يتقرب به الى الله وما هي بواحدة في أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر ومن تسلط من المقطعين على المنقطعين ما لا ينادى وليده وفي وادي بري والزبداني من الفتنة القائمة والسيوف الذي يقطر دماً ما لا زاجر له وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة ومن المهات اقامة وجوه الدخل وتقدير الخرج بحسبها .

ملأت أوقاف صلاح الدين مصر والشام وهي غير منسوبة اليه قال ابن خلكان ولقد فكرت في نفسي من أمور هذا الرجل وقلت انه سعيد في الدنيا والآخرة فانه فعل في هذه الدنيا هذه الافعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الاوقاف العظيمة وليس فيها شيء منسوباً اليه في الظاهر اه مات صلاح الدين ولم يخلف مالا عن ٥٧ تاماً وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وابنة ولم يخلف سوى دينار واحد بعد أن دخلت في يديه ثروة الفاطميين وجبى اليه خراج البلاد المفتوحة وحاز مغنم الصليبيين مرات

تغيب السلطان صلاح الدين أربع سنين في فتح القدس وغيرها من بلاد الساحل وفلسطين لم يدخل خلالها دمشق مع انه « كان يحب البلد ويؤثر فيه الإقامة على سائر البلاد » فرأى أولاده الافضل والظاهر والظافر وأولاده الصغار وأقام في دمشق أياماً يتصيد هو وأخوه الملك العادل أبو بكر بن أيوب وأولاده « ويتفرجون في أراضى دمشق ومواطن الصبا وكأنه وجد به راحة مما كان فيه من ملازمة التعب والنصب وسهر الليل ونصب النهار وما كان ذلك الا كالوداع لأولاده ومرابع نزهه » وبيننا هو على ذلك ونفسه تحذته بزيارة مصر بعد طول الغيبة عنها ناداه مولاه فلباه فابكى المقل وأدمى الحناجر مات رحمه الله والالسن تذكره بالمحمدة حتى قيام الساعة فكان رجلاً يعد

بمشرات الملايين وكم من ألوف لا يتساوون واحداً وواحد يساوى ألوفاً . مات وقد زلزل المسلمون لفقده كما كتب القاضى الفاضل فى ساعة موته الى ولده الملك الظاهر صاحب حلب من بطاقة : لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة ان زلزلة الساعة شىء عظيم كتبت لمولانا السلطان الملك الظاهر أحسن الله عزاءه وجبر مصابه وجعل فيه الخلف فى الساعة المذكورة وقد زلزل المسلمون زلزالا شديداً وقد حفرت الدموع المحاجر وبلغت القلوب الحناجر وقد ودعت اباك ومخدومى وداعاً لا تلاقى بعده وقد قبأت وجهه عنى وعنك واسلمته الى الله تعالى مغلوب الحيلة ضعيف القوة راضياً عن الله عز وجل ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وبالباب من الجنود المجندة والاسلحة المغمدة ما لا يدفع البلاء ولا ملك يرد القضاء وتدمع العين ويخشع القلب ولا تقول الا ما يرضى الرب وانا عليك يا يوسف لحزونون وأما الوصايا مما يحتاج اليها والآراء فقد شغنى المصائب عنها وأما لأتح الامر فانه ان وقع اتفاق فاعدمتم الا شخصه الكريم وان كان غير ذلك فالمصائب المستقبلة أهونها موته وهو الهول العظيم والسلام

مصطفى كامل^(١)

فى وفاة فقيد الوطن والصحافة التى اهتم لها أهل القطر عامة وأبانوا فى احتفالهم بتشيعه ومآتمه عن عواطف شريفة وشعور حى نام ، أعظم درس يتدارسه المصريون ولا سيما النابتة الجديدة منهم .

وصف الفقيد العزيز بما وصف به من الاوصاف التى هو جدير بها ، وذرفت الدموع لهول المصائب به فى ابان شبابه ، وأكبرت الامة أعماله وأقواله ، وقامت بالواجب من اكرامه واجلاله . كل هذا حق وكل هذا بزعماء النهضات وقادة الافكار جدير

ولكن اذا صارت تلك الروح التى كانت بالامس تهيج العواطف وتلعب

(١) نشرت فى جريدة المؤيد

بالتقارب ، الى جوار ربها فالواجب علينا أن نبحث في السر الذي اهتدى اليه صاحبها الراحل ، فأثر هذا الاثر المحمود في هذه الحقبة القصيرة من الزمن .

كثيرون مثله كانوا يدخلون المدارس ويتمسكون ويتهدبون فتراهم وهم صغار في المدرسة نفوساً تتلهب غيرة ، وقلوباً تتأوه على قرب أوقات العمل ، لتأني بما يجب عليها نحو أمتها ومجتمعها ونفسها فما هو الا بضع سنين حتى تتبدل أفكارهم وينظفوا بطابع غير الذي كنت تعهده فيهم

التاريخ كما يقولون يحكم لمصطفى كامل فيما أتاه من الخير لهذه البلاد وان كانت أعماله عند المنصفين أعظم شاهد حي ، على أن الرجل لم يكن مبرأ من العيوب ، ولكن محاسنه تروى كثيراً على نقائصها ، وهذا ما ننشده في رجالنا ونتمنى لو يكثر الافراد الذين على شاكلته من أكثر الوجوه في كل فرع من فروع العمل في هذا الجهاد العالمي

مصطفى كامل قال وكتب وخطب وجاهد وناضل ونافس وقاوم وتعب وقد كافأته أمته على حسن صنيعه بأن بذلت نحوه عواطفها حياً وميتاً ، فذهب مأسوفاً عليه مذكوراً بالرحمة ، وطوى بساطه بما عليه ، ولكن أمته حية كبيرة كل يوم تلد ولاداتها ، وكل يوم يدفن رجالاتها

أن غاب مصطفى كامل فلا ينبغي أن تغيب عنا سيرته الدكية ، وكيف وصل الى المجد المؤثل والعز الاقدس ، هو لم يؤت من المواهب ما لم يؤته أحد من العالمين ، بل امتاز بامتياز واحد وبالله من امتياز امتاز « ارادة » تعمل ، والارادة هي رأس ماله وهي في أفراد الشرق قليلة ، وبالأأسف ارادة مصطفى كامل هي التي بلغت به ما بلغت وهو فتى قبل الثلاثين فما بالك لو كان بلغ السبعين والثمانين صحة الارادة هي التي تنقص أبناء الشرق ولذلك تراهم وأن تعلموا وتهذبوا يظنون وراء الغربيين في جهاد الحياة ، وأن فاقوهم بعض الاحيان في الذكاء والنشاط ، وكلما كانت الارادة في صاحبها أقوى كان تأثيره أشد وعمله أسد .

يجزني والله أن أرى كل يوم في مصر من الافضل المهذبين ما لم أحلم بوجود أمثالهم من قبل ، ثم تراهم وبعضهم ممن تهيأت لهم أسباب النعمة خاملين خائفين

ضمافاً في الارادة الى حدانهم اذا قاموا ببعض الواجبات يخشون أن تزول عنهم نعمتهم ، ويحل بهم الويل والشبور

لو كان المتعلمون منا يعلمون كل بما فيه من ارادة ما يجب عليهم عمله ، لما أتى علينا ربع قرن إلا وقد نشأ لمصر عشرات من أمثال مصطفى كامل ، منهم في السياسة ، ومنهم في العلم ، ومنهم في الادب ، ومنهم في المال ، ومنهم في إصلاح الاخلاق ، ومنهم في اصلاح البيوت ومنهم في غير ذلك . وليس معنى هذا أن يكون في الامة ألوف مثل مصطفى كامل في السياسة فان أفراداً فيها يكفون . ولكن يجب أن يكون عشرات في كل فرع من فروع المجتمع ، فالعالم الذي يعلم الناس فيخزجهم من الظلمات الى النور ، والاديب الذي يرقق شعورهم ، والكتاب الذي يؤثر فيهم ، والكيميائي الذي يعلمهم صنع الاسمدة ومعالجة التربة ، والزارع الذي يتوفر على البذر والغرس ، والمهندس الذي يخفر الاقنية والترع ويتمهد السدود والجسور ، والصانع الذي يحيك النسيج ويصنع الصفيح والمصنح - كل هؤلاء ومئات من غيرهم ممن يتعاطون الحرف الضرورية في العمران ليسوا اذا كانت لهم ارادة كارادة مصطفى كامل في الفرع الذي توفر على خدمة حياته الا نافعين ، يرتفع بهم الرأس كما يرتفع الآن رأس المصري الوطني بذكر مصطفى كامل حب الشهرة من العوامل القوية في قيام المجتمعات ، فمن كان ولعه بالشهرة على أصوله تلحقة عن استحقاق ولا يلحقها ، كانت شهرته نافعة له ولامته ، ولا يلام في حب الشهرة الا من يغالى فيها ويحملها ديدنه ودينه ، كما لا يلام في حب الاثرة الا المغالى فيها أيضاً ، والاثرة أو حب الذات موجودة في فطر البشر وان اختلفت درجاتها ، فصحة الارادة هي التي نطلب أن تنتشر بين هذه الامة انتشار العاطفة الوطنية ، فاذا كثرت فينا ففيها ولا شك عن مصطفى كامل أكبر عزاء ، واذا لم تنم في أفرادنا فنقول ما يقوله بعضهم ان مصطفى كامل كان فلتة من فلتات مصر ، ولمصر في كل مدة رجل كبير تمتاز به يرتجل بين الرجال ، وتنصره على أي حال ، ويكون موضوع عجب الاجيال بعد الاجيال

النبوغ المصري^(١)

يا سادتي ويا اخواني

منذ نحو مئة سنة والقطر المصري ينهض نحو الترقى ويحتذى مثال الغرب في نهوضه . وكان من قبل لولا جامعة الازهر الدينية أشبه بكثير من بلاد العرب في قلة العلم والنور . وبالأزهر المعمور لم ينفك المصريون على اختلاف أعصارهم وأدوارهم أن يكون فيهم من اذا سئل سدد في علوم الشريعة وما يلزمها من علوم اللسان .

ولقد خلد التاريخ اسم (محمد على الكبير) جد الاسرة المالكة الحالية بما أسداه الى مصر من الايادي البيضاء فنعشها من سقطتها ، وأيقظها من طويل رقبتها . ولو كتب له تحقيق جميع أمانيه الشريفة لكان العرب اليوم من أرقى الدول الكبرى في العالم . فانه رحمه الله لم يترك باباً من أبواب النهوض المادى والعلمى الا وطرقه على أجمل صورة وعمل بجميع الاسباب لحياة مصر

وكان لعلماء الفرنسيين الذين استصحبهم نابوليون في حملته على مصر والشام يد طولى في وضع أساس هذه النهضة المباركة على النظام الاوربى . واعد علماء فرنسا من بعد العامل الاقوى في معاونة محمد على على اسعاد القطر ثم جاء علماء الانكيز والالمان والاطليان وغيرهم من أمم أوروبا وخدموا مصر بتنظيم سككها واصلاح ربيها ، واحياء زراعتها ، واستخراج آثارها وانماء القوى المفكرة العاملة في بنيتها

نعم كان العلم في مصر حتى الثلث الاخير من القرن الماضى لا يعتمد الا قليلا دائرة الدينيات والادبيات . ولحمد على الكبير يرجع الفضل الاكبر في بث مبادئ العلوم التى يسمونها خطأ الحديثة ، اذ كان لاجدادنا فيها القسح المعلى ، وهم الذين نقلوها الى أمم الحضارة الحديثة مشفوعة بابحاثهم وزياداتهم

(١) خطاب تلى في حفلة التأبين التى أقيمت للرحوم احمد كمال باشا الاثري المصرى في ردمه المجمع العلمى في دمشق (١٩٢٣ - ١٣٤٣)

واختراعاتهم وبعد عهد محمد على ضعفت العناية بالعلوم كان انقطع سندها دهرًا طويلا ، وكادت البلاد تدخل في سبات مؤلم وتنبت مميت . كان ضعف العلم بعد عهد شارلمان في فرنسا . وبين محمد على وشارلمان شبه كبير في التناهي بحسب المعارف والفضائل . وكذلك حدث في الاستانة بمد دور الفتح فانقطعت الرغبة في العلم بموت السلطان محمد الثاني وكاد يزال كل ما أسسه لأحياء معالمه . والارتقاء والانحطاط ولا سيما في هذا الشرق القريب تبع للفرد أكثر من الجماعة ، فان أسعد الحظ الأمة بسطان عاقل عادل سعدت ونجحت والعكس بالعكس .

ولما انتهى في مصر دور الناقلين والمترجمين والجامعين والمقتبسين في بعض ضروب العلم ، جاء دور الباحثين والمؤلفين والمبدعين ، واستطاع المصريون باصلاح شؤونهم الاقتصادية أن يتلقوا العلم الصحيح في جامعات الغرب ، فكان لهم على الدوام بضع مئات من الطلبة ، وكثرت التحال الاوربية الى مصر وطواف المصريين الى أوروبا ، واشتد التمازج بين المصري والغربي فاقتبس المصري بعض ما ينقصه من أساليب النهوض ، وكان لادخال الاصلاح على الازهر ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي والحقوق والزراعة والهندسة وغيرها من المدارس العالية والثانوية والابتدائية ولا سيما الكتاتيب في القرى والمزارع ما نراه من آثار نهوضها فنددهش له ونهش وكلما كثرت سواد المتعلمين هناك جاءت منهم طبقة أمثل من التي سبقها . وتراجع كل نفقة في العلم والصنائع وأصبحت الكلمة للاخصائيين والمفنيين . وكلما استحكمت حلقات هذا الرقي استغنت مصر عن الغريب واكتفت بعقول العاملين من رجالها . سنة الخالق في النشوء والارتقاء

تطورت مصر في نهضتها الاخيرة أطواراً كثيرة فكان الضعف يعر وهاتارة والقوة تصاحبها أخرى . وكان يعد نوابغ رجالها باديء بدء بالآحاد فأمسوا يمدون اليوم بالملئات . وكلما امتزج المصري بعنصر آخر من العناصر الشرقية حسنت ملكاته ، وصحت على الترقى ارادته ونياته . وقد نبغ لهدنا رجال ليسوا مفخراً من مفاخرها فقط ، بل هم مفخر العرب والشرق عامة ، ومنهم والحق يقال أفراد لا يقولون عن أرقى علماء الغرب في ذكائهم ومضائهم وبحضهم ودرسهم ، وذلك في مجرع العلوم البشرية ولا سيما في الهندسة والكيمياء والتصوير

والطبيعة والحقوق والطب والجراحة والسياسة والادارة ومن أعظم نوابغها زميلنا أحد أعضاء المجمع العالمي العربي المرحوم احمد كمال باشا الذي نحتفل الآن بتكريم اسمه واستمطار الرحمت عليه فقد كان أجزل الله ثوابه مثال النبوغ المصري وآخر طراز كامل من أفراد الدهر . رزق صفات العالم العامل ، وصرف نقد عمره في خدمة الآثار ، ولا سيما علم الآثار المصرية حتى أصبح على صعوبة هذا الفن وحدائمه الحجة الثبت فيه ، فكان اذا كان ذكر في الغرب والشرق علم الآثار المصرية يتمثل في شخصه ويتجسد في جهاده . عمل هذا بعيداً عن الجمعية في زاوية صغيرة من بلده ، فعمت شهرته الخافقين ، ولم تخف جلائل أعماله على الغريب دع القريب .

أيها السادة . اذا قام جمعنا بتعداد بعض ما أثر نابغة الشرق في الآثار فانه يقضى واجب العلم بتكريم أحد حملته وأساطينه وواجب آخر أعم وهو التنويه بذكر النابغين من المصريين وتمجيد النهضة العلمية المصرية التي لها الفضل الاعظم على نهوض العرب النازلين في ارجاء القارتين العظيمتين آسيا وأفريقية لمصر ولرجال مصر ، ولا نكران للجميل ، أثر ظاهر في الامة العربية والاسلام ، فاذا ذكرنا مصر فانا نذكر آخر دولة انحطت من ممالك العرب وأول دولة نهضت فيه . اننا بترداد اسم مصر نذكر أمة حفظت لنا تراث الاجداد . نتوه بشعب كريم احتفظ بلساننا ومشخصاتنا ، ولولا مصر بعد عهد الجراكسة والترك لاضمحلت العربية ومقوماتها ، ولتأخر نهوض العرب قروناً ، وكنا أقرب الى الاندماج في غيرنا من العناصر المتغلبة ، ولشءت حالنا العلمية أكثر مما ساءت ، وشاهدنا ونشاهد تخريباتها في جسم جامعتنا ومجتمعنا

انتفع الشام وهو القطر الشقيق الاصغر لمصر المحبوبة بالنهضة المصرية اكثر من غامة الاقطار العربية للجوار وأواصر القربى وكثرة التشابه بينهما ، ولان اقدارهما في عهد الدول الاسلامية كانت واحدة وحياتها الاجتماعية متجانسة . هكذا كانت مصر والشام في دولة الراشدين والدولة الاموية فالعباسية فالطولونية فالفاطمية فالاليوية فدولة الاتراك المماليك فدولة الجراكسة فدولة الترك العثمانية وكانت مصر منبع حضارة في معظم أزمانها كما كانت في العقود الاخيرة من

حياتها ملجأ ومعتصماً للأحرار . ومباعدة ممتازة للعلم الاسلامي تأخذ عنها
الاقطار والامصار :

نعزى مصر بفقيدتها النابغة ونحيبها بهذه المناسبة ونرجو لها حياة طيبة
بابنائها النجباء . نحيبنا بها أهم جزء من بلادنا العربية طالما حتى على العرب وحمل
النور اليهم مفتبظاً . مصر اليوم باريز العرب وعاصمتهم الأدبية تشبه ايطاليا
في عهد النهضة أواخر القرون الوسطى ، وكان سرى منها ضياء المعارف والفنون
إلى سائر ممالك أوروبا فقامت بتأثيرها المدنية الغربية الحديثة . ومن مصر سار
أمس ويسير اليوم وسيسير غداً شعاع من هذا النور النافع فيعم خيره الاصتقاع
العربية كافة ، ويومئذ يغتبط العرب ويهنتون لابرارهم بفضل قرائح بنهم آثاراً
حسنة في العلم والصناعة ، كما فعلت يابان في القرن الماضي ، وعندئذ يعيد الشرق
إلى الغرب ما كان استبضعه من بضائع العلوم والصناعات ، ويقضى الدين مع
الشكر ويرد القرش عشرة ، فنعد شيئاً من مجموعة المدنية الحاضرة كما كنا
في العصور السالفة كل شيء ، وكان لنا الأثر المحمود في تكوين المدنية الغابرة
والآن أترك الكلام لرصيفي الاستاذ معارف يتلو على مسامعكم صورة
مصغرة بل مجشمة من عمل عضونا الذي نجفنا بفقده يتمثل لكم فيها النبوغ
المصرى أحسن تمثيل . ونرفع تعازينا وأسفنا من ضفاف بردى إلى بنى قومنا
على شطوط النيل المبارك لفقد رجلهم ورجلنا العزيز ونطلب له من المولى تعالى
العفو والرضى والرحمة وإنا لله وإنا إليه راجعون .



فهرس

كتاب القديم والحديث

صفحة	صفحة
٢٤٢ الهجرة	١ فاتحة - القديم والحديث
٢٥١ الهجرة إلى مصر	٦ الشعوبية
٢٥٧ التفاضل بالبلاد	٢٥ العلم الصحيح
٢٦٠ النزلاء المسامون	٢٥ علاقة العرب بالغرب
٢٦٤ غوطة دمشق	٤٢ ارتقاء العرب والمحطاطهم
٢٦٦ شبه جزيرة كليبولي	٥٤ اعداء الاصلاح
٢٦٨ جبال طوروس	٦٥ تعلم اللغات
٢٧٥ على قبر أبي الفدا في حماة	٦٥ اللغات الافرنجية
٢٧٣ نحن والمسكرات	٧٥ الحافظة والحفاظ
٢٨٥ المآذب والاسراف	٨٦ الانشاء والمنشئون
٢٨٢ التمدن الانثوى	١٠٨ الخطابة عند العرب
٢٨٦ تكريم النزاهة	١٣٧ الخطابة عند الافرنج
٢٨٨ الحاج مصطفى حولا	١٤٨ أصل المعزلة
٢٩٥ المستشرقون ومؤتمرهم	١٥٧ أصل الوهابية
٢٩٦ الالقاب العلمية	١٧٤ دولة الادب في حلب
٣٠١ التمييز بالألسنة	١٨٦ بين دمشق والقاهرة
٣٠٥ السلطانان	١٩٩ مدن العرب
٣٠٧ حرية الامم	٢٠٨ سماع الالحان
٣١٥ صلاح الدين ومدونو سيرته	٢١٩ شرف الموسيقى
٣٢٦ سيرة صلاح الدين	٢٣٤ الاستشفاء بالموسيقى
٣٤٥ مصطفى كامل	٢٢٨ الموسيقى الغنائية
٣٤٣ النبوغ المصري	٢٣١ الاستقلال والاتسكان

صواب	خطأ	٣	٤	صواب	خطأ	٣	٤
مشخصاتهم	شخصياتهم	١٥	٣٧	والقضاء	أو القضاء	٦	٦
تفرس	تفلس	١٤	٣٦	الاعتداد	الاستمداد	٩	٦
الهنود	البهرد	٦	٤٩	الا أن كل فن	وكل فن	٢	٧
وأوغلوا في فتوحهم	وأوغلوا عليهم	١٩	٤٢	يبدو بسرعة	ويبدأ بسرعة	٣	٧
ونشروا ألوية العدل				لما أختر من جداره	لما أختر من جواره	٦	١٠
والاحسان بين من				وفي نفسه	وفي نفسى	١٧	١٠
غلبوا عليهم				على العرب بآدم	على العرب آدم	٢	١٤
مع الشدة وتأثراتهم	تضاف هذه الجملة	٥	٤٣	لا تفضلوني عليه	ألا تفضلوني عليه	٣	١٤
أقوى وتخليهم أعظم	بمد مظهرها:			طهرها الله من كل	طهرها الله كل	١٤	١٤
وذا كانوا أشد توقدا				على ابن قتيبة	على بن قتيبة	١٧	١٤
وأسرع لثبهم لكنه				وبعد همهم	وبعد همهم	٢١	١٤
أضعف وأميل الى				ارومتها	ارومتها	٢٢	١٤
عدم الثبات والسرعة				دونه كرم	دونه كرم	١٠	١٥
في أعمالهم الاعتيادية				يجود	يجوز	٤	١٦
أكثر من الحركة				باس	ناس	٢٤	١٨
وربما كان تركيبهم				مساس	حساس	١١	٢٠
الطبيعى أضعف قوة				لم يتعد	لم يتعد	١٤	٢٠
ونفوسهم أقل عزماً				على الحديث	على تقديسهم	١٦	١٧
وثباتاً				والاصولى بحمل على			
فلا تقوم	فلا تمتدز	١٨	٤٣	الفروعي واشتغل			
بالعلوم	بكل العلوم	٦	٤٤	أهل كل قطر بل			
لا بالفرس	بالقوس	٣	٤٥	أهل كل مصر			
وأثوا	وأعرفوا	١٥	٤٧	بتقديس من نواطأوا			
السبحر	الستمر	٤	٤٨	على تقديسهم			
ومن عزها	ومن غيرها	٢٥	٤٨	فنازلا	منازل	٩	٢٣
يقوم	يهدم	٢٢	٥١	والاجدر	والاجود	٩	٢٣
وتعو	وتحن		٥٢	مائلت	ماطلت	١٨	٢٣
والقروية	والفردية	١	٥٣	يقين	يقينه	١	٢٥
تمام	تمام	١٤	٦١	والتصوف	والتصرف	٢٥	٢٦
وبرلين	وبريس	٢٤	٦٣	سنة ١٣١١ م	سنة ١١ م	١٧	٢٨
المتعدى	المتعدى	١٣	٦٤	فالجزائر	بالجزائر	١٢	٢٩
فقرنا	مقرنا	٢١	٦٨	التي تقف بالمدينة	التي بالمدينة	٢٣	٣١
على بن هندو	على بن هند	٢	٩١	فالمجتمعات	فالمجتمعات	٩	٣٢
صاحب الفشوار	صاحب النشوا	٦	٩١	الاورية عناء	الاورية	١	٣٣

صواب	خطأ	٤	٥	صواب	خطأ	٤	٥
يحدث	يحدث	٢٦	١٥٦	أبو الفرج	أبو الفتوح	٦	٩٥
دعا	داد	٥	١٥٧	الجمالات	الجمالات	١١	٩٦
الاستيفاء	الاستبقاء	١١	١٥٧	ابن جبير	بن خبير	٢٣	٩٦
وأتمه	واتم	٦	١٥٨	البربر	البربر	٨	١٠٠
الاشراك	الاشترك	١٨	١٥٨	وملوك	ولا ملوك	٢٠	١٠٦
تلفيات	تلفيات	١٧	١٦٣	ويأمرهم	ويأمر	١٦	١١٣
منه	منهم	١٦	١٦٩	والانسان	والالسان	٢٣	١١٨
فيحجر	فيحجر	٢٣	١٦٩	الجرس	الجرح	٥	١٢٠
والصميري	والصغيري		١٨٣	البرد	البير	١٤	١٢١
وسح	وسنح	٢١	١٨٤	وتستمين	ولا تستمين	٩	١٢٤
والورادة	والواردة	٥	١٩٣	في التخلص	في التخلص	١١	١٢٥
ويقام	وبقال	٢	١٩٤	الايبناء	الانبياء	١٢	١٢٨
الورادة	الواردة	١٤	١٩٤	مسلمة	سلمة	١١	١٣٦
والصبيح	والصبح	٢	٢٠١	الخطابة	الخطابية	٢٢	١٣٩
الاتياخيه	الاتاخيه	٣	٢٠١	تعلمهم	تعلمهم	١٢	١٤٢
يصوت	بصور	٢٥	٢٠٩	معاناة	معناة	١٤	١٤٤
بنائه	بنائه	٢٢	٢٢٢	ومحركات	والمحركات	٢٢	١٤٥
المذوذ	المذوذ	٢٠	٢٢٣	عفواً	هنوياً	٤	١٤٧
يتبعها	يتبعه	٢٢	٢٢٣	الغنة	الغنة	٤	١٤٨
بالنواء	بالنواء	٢٥	٢٥٠	ولا عناه	ولا عناه	١٠	١٤٨
أقدهم	أقوامهم	٢٢	٢٥٣	يسلب	يسب	٦	١٤٩
مختلف	مختلف	١٣	٢٥٤	بفضين	بفضينا	١٧	١٤٩
فألاحظ	ملاحظ	١٨	٢٥٧	فان تاب فيها	فان قاب فيها	٢٣	١٤٩
بسمعي	يستقبل	١٦	٢٥٩	رعاية	لرعاية	٩	١٥٠
فلك	فلك	٩	٢٦٥	فهم	منهم	٩	١٥٢
يتطلع	يتطلع	١٩	٢٦٥	وممكن	وممكن	٢٢	١٥٢
والتشيع	والتشيع	١٩	٢٦٦	وهو ليس	وهو لين	٨	١٥٣
واحدة	ولدة	١٤	٢٨١	الصفاتية	الصفانية	١٢	١٥٣
عريضة	مريضة	١٨	٢٨٨	من توسل	من توسد	٨	١٥٥
استلمحتها	استلمها	١٧	٣١٦	لم لا تواني	لم تواني	٢٥	١٥٥
سزارته	صفارته	٦	٣١٨	فانصرف	فما تصرفت	٢	١٥٦
ويترفر على	ويترفر من	١	٣٢٠	عذرناك	عذرناك	٦	١٥٦
الصالح	صالح	٢٤	٣٣٣	ثم ابتدأني	ثم ابتداء فيه	٨	١٥٦
فخطوا	فخطو	٢٤	٣٣٤	تفسير أهل السنة	تفسير أهل السنة	١٥	١٥٦
سمعت	سمت	١٧	٣٣٥	المشبهة	المشبهة	١٧	١٥٦
من مجالسه	من مجالسه	١	٣٣٦				

« وقد وقعت أغلاط وسقطات من حروف وتقط أغفلنا الإشارة إليها لأنها تعرف بالبداهة »